توريث الدعوة في سورة مريم

دراسة في سنن الاعتزال ومآلات الخلف

د أحمد نصير

**تمهـــــــ

لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا) (مريم 81) حتى ضجت السماوات والأرض منهم (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (مريم 90) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (مريم 91) .

فالسورةُ تردُّ على هؤلاء الجاحدينَ: بأنَّ كرمَ الله لا حدَ له، وأنَّ اصطفاءَهُ لخواصّ عباده حقٌّ واقع، ومنَحَهُ لهم أوسمةَ النبوّة والكرامةِ والاصطفاء، هو من تمامِ عدلِهِ، وكمالِ فيضِهِ، وليس في ذلك نزولٌ بالله عن ألوهيّته، ولا رفعٌ للبشرِ فوقَ أقدارهم.

فخلاصة القول :إن سورةَ مريم –في بصر ابن تيمية – هي سورةُ "التوازنِ الروحيّ": التي تُحرّرُ العقلَ من غلوّ المغالين الذين رفعوا المخلوقَ إلى مقام الخالق، وتُحرّرُ الوجدانَ من جفافِ المفرّطين الذين جحدوا فضلَ الخالق على خلقه، وتضعُ القلبَ البشريّ في مكانه الحقّ :**مقامَ العبوديّةِ المشرقةِ بنورِ الرضا والاصطفاء.**

قال صاحب اللباب (اعلم أنَّ منكرِي التوحيد الذين اثْبَتُوا معبُوداً سوى الله تعالى فريقان : –
منهم : من أثبت معبُوداً غير الله تعالى حيًّا ، عاقلاً ، فاهماً ، وهم النصارى
ومنهم : من أثبت معبُوداً غير الله ، جماداً ليس بحيّ ولا عاقلٍ ، وهم عبدةُ الأوثان
والفريقان ، وإن اشتركا في الضَّلال ، إلاَّ أنَّ ضلال عبدة الأوثان أعظم ، فلمّا بيَّن الله تعالى ضلال الفريق الأوَّل ، تكلَّم في ضلال الفريق الثاني ، وهم عبدةُ الأوثان)[1].

وإزاء هذا الضلال والتيه في عبادة الله لابد للمهتدي أن يستقطع وقتا للاعتزال للعبادة والتفكر في النفس والكون لمعرفة الله ، فالاعتزال في تلك اللحظات أدعى إلى التجرد من شواغل الدنيا وضلالات الناس ليكون الذهن متفرغا لمعرفة حق الله على العباد ، ولذلك نجد أن سورة مريم تحدثت عن **ثلاث صور للاعتزال** :–

الصورة الأولى : اعتزال نبي الله زكريا معتكفا في المحراب بعد أن يئس أن يجد في قومه من يرثه ، فتمنى على الله أن يرزقه ولدا يرث العلم منه ثم إنه لا يكلم قومه ثلاثة أيام شكرا لله على هذه النعمة

الصورة الثاني : انتباذ مريم من أهلها مكانا شرقيا ، حيث تفرغت للعبادة والقنوت والدعاء ، فيأتيها الرزق في مكانها من حيث لا تحتسب

الصورة الثالثة : اعتزال إبراهيم عليه السلام قومه اعتزالا دائما بعدما حاولوا حرقه نصرة لدين آبائهم عنادا معه واستمرارا في عبادة الشيطان ، وهكذا يختار المسلم هذا الطريق في تلك الظروف الثلاث ، ليجد الفرصة للمعرفة الحق دون تأثر بالبيئة المحيطة به .

فكان زكريا عليه السلام عاكفاً في محرابه، موصول القلب بربه، قد اعتزل قومه حيناً من الدهر. ولما نظر فيمن حوله، أوجس خيفة من أن يضيع أمر الدين من بعده، فلم يجد في الموالي كفاءة ولا حزماً يحملون به راية الدعوة إلى الأجيال القادمة. عندئذٍ، تضرّع إلى الله بقلب خاشع يرجو الولد، فاستجاب الله دعاءه، ووهبه على كبر سنه غلاماً زكياً سمّاه "يحيى"، في معجزة باهرة رغم عقم امرأته وجفاف شبيبته.

[1]) اللباب في علوم الكتاب ج11 ص 81

وكانت هذه العطية نعمةً غامرةً تستوجب ثناءً من نوع خاص؛ إذ أمره الله أن يحبس لسانه عن كلام الناس إلا إشارة، ليتفرغ قلبه وقته لذكر الله. فخرج على قومه من محرابه، لا يكلمهم ثلاثة أيام إلا رمزاً بيده، وأوعز إليهم أن يفيضوا في تسبيح الله وتحميده بكرة وعشياً، تهيئةً للنفوس واستعداداً لاستقبال هذه الهبة الربانية الكريمة.

وأما مريم البتول فما مالت إلى عُزلتها، وانتبذتْ من أهلها مكانًا شرقيًّا، عن جفوةٍ جَدَّتْ، أو سوءٍ بَدَا من قومها؛ فكيف وضميرُ الغيبِ يكلؤها، ومحرابُ زكريا يحضنُ طُهرها، وهم الذين استهموا على كفالتها شحًّا ورغبةً! بل إنها النَّفْسُ القانتةُ، نزعتْ إلى خلوةٍ تُصَفِّي فيها مرآةَ الرُّوحِ لمناجاةِ بارئها، متسقةً مع نذرِ أُمِّها الصالحةِ التي وهبتْها للمُحرابِ عتيقةً مُحرَّرةً للهِ وحده.

بيدَ أنَّ مساربَ الفِكْرِ الإنسانيّ بعدَها، ضلَّتْ بها السُّبُلُ في فَهْمِ جوهرِ التَّعبُّدِ؛ فابتدعَ النصارى رهبانيةً قوامُها الانقطاعُ الجافُّ عن نِتاجِ الفطرةِ وسُننِ الحياةِ. وفي ميزانِ الإسلامِ الرَّحْبِ، لا تَعْنِي العبادةُ وأدَ الفطرةِ ولا هجْرَ الزواجِ والإنجاب؛ فكانَ القُبُوعُ في المحاريبِ بغيرِ شريكٍ ولا وَلَدٍ خروجًا عن السَّنَنِ الإلهيّ القويمِ الذي فُطِرَ النَّاسُ عليه.

ومن ثَمَّ، اقتضتْ الحِكمةُ الربَّانيَّةُ أن يهبَها "عيسى" -عليه السلام- آيةً ومعجزةً؛ ليرتسمَ في الأذهانِ بيانٌ ساطعٌ: أنَّ الانشغالَ بتربيةِ طفلٍ رضيعٍ، والقيامَ على شؤونِهِ حتى يَشِبَّ طوقُهُ، ليس عائقًا دونَ مَرضاةِ اللهِ، بل هو في حقيقتِهِ عَيْنُ العبادةِ وجَوْهرُ القُرْبَةِ.

ولم تقفِ المعجزةُ عندَ حدودِ إحياءِ الفطرةِ، بل جاءَ ميلادُهُ بلا أَبٍ ليهدمَ أوهامَ الشِّرْكِ في مَهْدِها؛ فهو الشاهدُ النَّاطِقُ بأنَّ اللهَ فرْدٌ صَمَدٌ، تنزَّهَ عنِ الصَّاحبةِ والوَلَدِ. فلَمَّا وضعتْ مريمُ وليدَها، تهاوتْ أركانُ الرهبانيةِ المبتدعةِ التي تحرمُ ما أحلَّ اللهُ، وأقامَ الحقُّ سبحانَهُ حُجَّتَهُ البالغةَ عليهم قبلَ أن تنبتَ بذورُ بدعتِهم.

إنَّ تلك الرهبانيةَ لم تَكُ يومًا من مِلَّةِ إبراهيمَ الحنيفيةِ السمحةِ في شيءٍ؛ إذ البدعةُ في الدِّينِ هي كُلُّ مُحدثةٍ اختُرِعتْ على غيرِ مِثالٍ سابقٍ، ولم يُعرَفْ لها أصلٌ في الشريعةِ، بل صاغتها أهواءُ البَشَرِ وأحدثوها من بعدِ رَسولِهم.. وما كانَ مُحدثًا بعدَ صاحبِ الشريعةِ، فهو رَدٌّ.

أما الخليل إبراهيم -عليه السلام- فقد استهل دعوته بتبصير قومه بنور الحق، ومناشدتهم بترك غوايتهم، فما وجد منهم إلا كِبرًا وعتوًا.

وحين أدرك عميق ضلالهم، أراد أن يُعلن براءته التامة من أوثانهم؛ فبدأ بأقرب الناس إليه، وخاطب أباه بلسان الناصح المشفق، متودّدًا إليه بألين القول وأرقّ العبارة، لكنّ الأب صمّ آذانه وأبى الاستجابة.

ولم يقف الأمر عند هذا الحدّ؛ بل إن قومه، حين جابههم بباطلهم وفنّد عقيدتهم، توعدوه بالهلاك، وجسّدوا غيظهم واقعًا حين ألقوه في سعيرِ النار. وعندما بلغت الخصومة ذروتها، وضاق الخناق بالدعوة، لم يجد الخليل بدًا من مفارقتهم، فاعتزلهم مهاجرًا بقلبه ودينه، لِيَخلُصَ بعبادته لربّه، ويأمن على عقيدته ونفسه من بطشهم.

بهذا استبان أن جميع هؤلاء الأنبياء الذين ذكروا يمثل كل واحد منهم عضوا في أسرة ، فزكريا أب صالح رزقه الله ولد صالح ، ويحيى : ولد صالح وأبوه صالح ، ومريم : أم صالحة ولها ابن صالح ، وابراهيم ابن صالح لكن أبوه كافر وله صديق صالح (لوط) ، وموسى : له أم صالحة وهو أخ صالح وأخوه صالح ، وإسماعيل خوطب في هذه السورة وهو يأمر أهله بالصلاة ، فالملاحظ أنهم أعضاء في أسرة ، فالأسرة هي عماد المجتمع .

لكن المجتمع لا يتكون من أسر فقط ، ولذلك ذكر نبي الله (إدريس) كفرد وليس بصفته عضو في أسرة ، ليتتحقق التصور الكامل للمجتمع الإيماني بكل أفراده وصوره ، ليتحرك الناس جميعا في الحياة بعبادة لله موحدين ومقتدين بأنبيائهم ، قبل أن يأتوا إلى الله فرادى يوم القيامة .

وفي مقابل ذلك، نرى صورة لجيل جاء من بعد أولئك الصالحين، فأضاعوا الصلاة وانساقوا وراء شهواتهم، لينالوا جزاء ضلالهم وخسرانهم. إلا من تدارك نفسه بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، فهؤلاء مآلهم إلى الجنة ونعيمها.

أما أولئك الضالون الذين أنكروا البعث، فيحشرهم الله مع الشياطين ويتركهم في جهنم جاثمين على ركبهم من الذل والمهانة؛ وهم الذين طالما تفاخروا في دنياهم بأموالهم وأولادهم ومجالسهم، واستكبروا عن عبادة الرحمن، واعتزوا بأولياء من الشياطين عبدوهم من دون الله. بل وبلغ بهم التطاول أن اجترأوا بالإساءة إلى إلههم الحق، في إساءة كادت تضيق بها السموات والأرض وتطبق عليهم، لولا رحمة الله الواسعة وسنته في إمهال عباده وعدم إهمالهم، حتى يأتوا إليه يوم القيامة فرادى، مجردين من كل عصبة ومال، كما خلقهم أول مرة.

وتختتم السورة بآية تفيض بجميل الود وحب الله للقاء عباده المؤمنين الذين أحبوا لقاءه، لترسم صورة من المحبة المتبادلة بين الإله وعباده المتقين. وفي الوقت ذاته، تحمل وعيداً شديداً لكل خصم لدود عاند الحق، مؤكدة هلاكهم المحتوم حتى ينتهي بهم المطاف صرعى، لا تُسمع لهم باقية ولا يتردد لهم صدى.

محاور سورة مريم

قال الفيروزآبادي (مقصود السّورة ومعظم المراد منها على سبيل الإجمال: وَعْد الله العباد بالكفاية والهداية، وإجابة دعاءِ زكريَّا، والمِنَّة عليه بولد: يحيى، وإعطائه علم الكتاب، وذكر عجائب ولادة عيسى وأُمّه والخبر عن أَحوال القيامة، ونصيحة إبراهيم لآزر (ومناظرة آزر له) والإشارة إلى قُربة موسى، وذكر صدق وعد إسماعيل، وبيان رفعة درجة إدريس، والشكوى من الولد الخَلْف، وحكاية أَهل الجنَّة، وذلّ الكفَّار فى القيامة، ومرور الخَلْق على عَقَبة الصِّراط، وابتلاء بعضهم بالعذابِ، والرّد على الكفَّار فى افتخارهم بالمال، وذلّ الأَصنام، وعُبَّادها فى القيامةِ، وبيان حال أَهل الجنّة والنَّار، والمِنَّة على الرَّسول بتيسير القرآن على لسانه، وتهديد الكفَّار بعقوبة القرون الماضية، فى قوله (هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً)[1].

[1]) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج1 ص 215

مقدمة سورة مريم

قوله (كهيعص) هي حروف تنطق باسمها وليس بمسماها ، فليس لها مدلول بذاتها وإن أكثر العلماء في التفنن بتأويلها [1]، لكنها لا تخلو من الحكمة .

ذهب جمهور السلف وأهل السنة إلى أن الحروف المقطعة (ومنها كهيعص) هي من "المتشابه" الذي استأثر الله تعالى بعلم مراده الحقيقي منه، فنُنطق بها كما جاءت، ونؤمن بأن لها حكمة بالغة، دون الخوض في تعيين معنى جازم بلا دليل قطعي .

يقول مصطفى صادق الرّافعي (تدَبُّر الألفاظ على حروفِها وحركاتِها وأصالتِها ولحونِها ومناسبة بعضِها لبعض في ذلك والتّغَلْغُل في وجوه من أجلها اختير كلّ لفظ في موضعه، ثمّ النظر في روابطِ الألفاظِ والمعاني والحروف والصِّيَغ الّتي أُقيمَت عليها اللُّغة، ووجه اختِيار الحرف، أو السّورة، ثمّ طريقة النّسق والتّرك في الجملة، ووجه الحذف أو الإيجاز أو التّكْرار .. ونحوِها مِمّا هو خاصٌّ بهذه الطَّريقة حسبما ما تُوَجِّهُهُ المعاني؛ فإنَّ كُلَّ ذلك في القرآن على أثَرِه) .

ويمكن تفكيك هذا الكلام إلى عدة ركائز أساسية تشرح منهج تدبر اللفظ القرآني:-

أولا : التدبر على مستوى اللفظة المفردة

- **الحروف والحركات** :النظر في اختيار الحرف نفسه (مثل تقديم حرف على آخر) والحركات الإعرابية أو الصوتية (الفتحة، الضمة، الكسرة) وكيف يخدم هذا الاختيار جرس الكلمة ومعناها.
- **أصالة اللفظ ولحونه** :تفحص أصل الكلمة الاشتقاقي، و"لحونها" (أي وزنها وتفعيلاتها وصداها الصوتي في الأذن) وكيف يتناسب هذا الصوت مع الموقف (سواء كان موقف تبشير ورقّة، أو موقف وعيد وشدة) .
- **مناسبة الألفاظ لبعضها** :كيف تتآلف الكلمات المتجاورة في الآية الواحدة لتصنع إيقاعاً متوازناً وسلساً دون أي تنافر صوتي.

ثانيا : .التغلغل في سبب الاختيار (البلاغة التعبيرية)

- التعمق في البحث عن **البلاغة من** التي من أجلها سيق اللفظ بمبناه دون الإتيان بشيء من مرادفاته ، فكل لفظة تؤدي وظيفة دلالية ونفسية لا تسدها كلمة أخرى.

ثالثا : النظر في الروابط والبناء العام

- **روابط الألفاظ والمعاني والصيغ** :دراسة العلاقات والروابط الوثيقة بين الألفاظ ومعانيها، وبين الصيغ الصرفية (مثل اختيار صيغة المبالغة أو اسم الفاعل) التي بنيت عليها لغة القرآن.

---

[1]) أورد السيوطي في الاتقان في علوم القرآن ج2 ص 22 العديد من الأحاديث في تأويل كهعص على النحو التالي
3842 - أخرج الحاكم وغيره من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس في كهيعص قال الكاف من كريم والهاء من هاد والياء من حكيم والعين من عليم والصاد من صادق
3843 - وأخرج الحاكم أيضا من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس في قوله كهيعص قال كاف هاد أمين عزيز صادق
3844 - وأخرج ابن أبي حاتم من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله كهيعص قال هو هجاء مقطع الكاف من الملك والهاء من الله والياء والعين من العزيز والصاد من المصور
3845 - وأخرج عن محمد بن كعب مثله إلا أنه قال والصاد من الصمد
3846 - وأخرج سعيد بن منصور وابن مردويه من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس في قوله كهيعص قال كبير هاد أمين عزيز صادق
3847 - وأخرج ابن مردويه من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في قوله كهيعص قال الكاف الكافي والهاء الهادي والعين العالم والصاد الصادق
3848 - وأخرج من طريق يوسف بن عطية قال سئل الكلبي عن كهيعص فحدث عن أبي صالح عن أم هانىء عن رسول الله قال كاف هاد أمين عالم صادق
3849 - وأخرج ابن أبي حاتم عن عكرمة في قوله كهيعص قال يقول أنا الكبير الهادي علي أمين صادق

- **اختيار السورة والحرف** :بفحص المناسبة بين موضوع السورة واسمها، أو الحروف المقطعة في أولها، وكيف يمهد هذا الاختيار لمضمون السورة العام.

رابعا : طريقة النظم والأسلوب (النسق والتركيب)

- **طريقة النسق والترك** :بالنظر في ترتّيب الكلمات داخل الجملة (التقديم والتأخير)، وما ذكر وماحذف .
- **الحذف والإيجاز والتكرار**: فالحذف لبعض الكلمات اعتمادا على فهم القارئ يمنح النص قوة وإيحاءً أوسع **بينما** تكرار بعض الألفاظ أو القصص يكون أغراض بلاغية مثل التأكيد، أو التهويل، أو التذكير.

ويختم الرافعي بقوله" **فإنَّ كُلَّ ذلك في القرآن على أثَرِه**"؛ أي أن كل هذه التفاصيل اللغوية والدقائق البلاغية تسير بدقة لتخدم "المعنى المراد"، فالمعنى هو المتبوع واللفظ هو التابع له، مما يجعل النص القرآني في أعلى درجات الإعجاز البشري الذي لا يمكن الإتيان بمثله.

وقال الشيخ صالح آل شيخ (هذه الأحرف هي الأحرف التي بها تكلم العرب وأنشئوا منها كلاما به يفاخرون بلاغة وبيانا وفصاحا ، فأشعار العرب من هذه الأحرف، وكلماتهم وخطبهم ، وقد افتتحت بعض السور بالأحرف المقطعة تنبيها على أنّ هذا القرآن كلماته وآياته من هذه الأحرف ، متحديا متحديا متحديا إياهم أن يستعملوا هذه الأحرف في إنشاء كلام مثل القرآن، ولهذا تجد أنَّ الأحرف المقطعة في افتتاح السور أغلبها والغالب منها يأتي بعده ذكر الكتاب والقرآن، ولا تجد سورة فيها ذكر للأحرف المقطعة إلا فيها ذكر القرآن، والأغلب أن تكون بعد الحرف المقطعة مباشرة)[1].

ويلاحظ في سورة مريم أن الأحرف المقطعة لم يرد بعدها هنا ذكر الكتاب ، وإنما قال سبحانه (ذكر رحمت ربك عبده زكريا) وتحدثت عن ميراثه (يرثني ويرث من آل يعقوب) ، ومن المعلوم أن ميراث الأنبياء هو علم الكتاب ، ومن ثم فإن الكتاب هنا ذكر بطريقة تطبيق المنهج وتأريثه .

وقد اجتهد الكحيل في حساب عدد تكرار أحرف (كهيعص) في سورة مريم فوجدها 114 ضرب 7 ، ومعلوم أن عدد سور القرآن 114 سورة ، وقد قال الله (ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم) ، فتأمل [2].

[1]) صالح بن عبد العزيز آل شيخ : إعجاز القرآن ج1 ص 31

[2]) https://www.facebook.com/reel/1744262766675495

المحور الأول

"زكريا" يناجي ربه ويعتكف معتزلا قومه شاكر لرزق الله الولد "يحيى"

قال تعالى (ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11) يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15)

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: 2]؛ هو افتتاحُ الكلامِ المفَسِّر، وإن سبقَته فواتحُ السورة التي لا تخلو من حكمةٍ بالغة. ومفادُ الآية أن الله تعالى شمل برحمته عبده زكريا عليه السلام، وقد بلغ من الكبر عتيّاً. قال ابن عاشور (ذِكْرُ) خبر لمبتدأ محذوف ، وتقديره : (هذا ذكر) ، وهو بمعنى: (اذكر)[1] .

والمعنى: هذا الذي نقصُّه عليك في القرآن الكريم ـــ يا نبينا ـــ ليكون برهاناً ساطعاً على نبوتك، هو ذِكرُ رحمةِ ربِّك بعبده زكريا؛ حين وهن منه العظم، واشتعل الرأس شيباً، وكانت امرأته عاقراً لا تلد. فابتهل إلى ربه راغباً في الولد، لا حظّاً للنفس أو شهوةً، بل غيرةً على الدين، وحرصاً على امتداد الدعوة؛ إذ لم يجد في بني عمومته ومواليه كفؤاً يحمل راية النبوة والرسالة من بعده[2].

.

وهنا تتجلى رحمةُ الله بعبده المؤمن؛ إذ جعل همَّه عند الكِبر معقوداً على توريث الدعوة، لا على التشبث بالدنيا عند دُنوّ الأجل، مما يدل على أنه أحبَّ لقاء الله ولم يركن إلى البقاء. وهو بذلك يخالف طبع البشر الذي بيَّنه النبي ﷺ بقوله: «يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ»[3]. وقد علّق ابن الجوزي على هذا المعنى بقوله: «لما كان أحبَّ الأشياء إلى ابن آدم نفسُه، أحبَّ بقاءها؛ فأحبَّ العمر، وأحبَّ سببَ بقائها وهو المال. والهرمُ إنما يعمل في بدنه لا غير، فإذا أحسَّ بقرب التلف عند الهرم، قويَ حبُّه للبقاء؛ لعلمه بقرب الرحيل وكراهيته له) [4]

قوله (إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا) (3) إنّ استشعار قُرب الله جلّ وعلا من قلب عبده هو مبعث الأدب في مناجاته، وأصل السكينة في دعائه؛ فكلما تيقّن المؤمن بحضور الرقيب الأقرب إليه من حبل الوريد، خفض جناحه، وأسرّ بنجواه، مستهجنًا رفع الصوت في مقامِ مَن يَعلم السرّ وأخفى.

---

[1]) التحرير والتنوير ج 16 ص 8
[2]) أيسر التفاسير للجزائري مع تعديل الصياغة
[3]) رواه مسلم ج5 ص 261 رقم 1736
[4]) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 831

وفي بيان هذا الأدب، قال ابن جزي : (أخفاه؛ لأنه يسمع الخفي كما يسمع الجهر، ولأن الإخفاء أقرب إلى الإخلاص وأبعد من الرياء»[1]، وهذا «يدل على أن أفضل الدعاء ما هذه حاله»[2]. كما لفت ابن عجيبة إلى هذا المعنى بقوله: «راعى عليه السلام حسن الأدب في إخفاء دعائه) [3].

وإلى جانب الأدب والإخلاص، أشار ابن القيم إلى أثر استحضار القرب الإلهي في سلوك الداعي، فقال: «كلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصوّر ذلك؛ أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأتَّ له رفع الصوت به، بل يراه غير مستحسن، كما أن من خاطب جليسًا له يسمع خفيّ كلامه فبالغ في رفع الصوت، استُهجن ذلك منه) [4].

فحين يتجلّى للعبد جلال القرب في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186]، يذوب في قلبه جفاء البُعد، ويتحوّل دعاؤه إلى همسٍ يملؤه الحياء؛ لعلمه أن الذي يقصده ليس بغائبٍ فيُستدعى، ولا بأصمّ فيُنادى بصياح.

كما أن لسرّية الدعاء أثرًا عمليًا في العبادة، إذ نوّه ابن تيمية بأنها أجمعُ للهمّة وأدعى لديمومة المسألة؛ ذلك أن مناجاة الخفاء تُبقي على طاقة اللسان ونشاط الجوارح، فلا يدركها الملل ولا يمسّها الوصب، بخلاف الجهر الذي يستنزف القوى ويقطع حبل الاستمرار سريعًا، تمامًا كالقارئ الذي يُجهد صوته بالتكرار فلا يقوى على الإطالة، بينما ينساب مَن خفض صوته في نهر القراءة دون انقطاع[5].

وبمثل هذا الهدي أدّب النبي ﷺ أصحابه حين ارتفعت أصواتهم بالتكبير، فناداهم برفق: «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ»؛ أي (ارفقوا بأنفسكم، وهونوا عليها، واخفضوا أصواتكم) ، مرسخًا فيهم معاني القرب الإلهي، ومذكّرًا إياهم بأنهم يرجون سميعًا بصيرًا لا تحجبه المسافات، ولا تخفى عليه خفقات القلوب.

فعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكُنَّا إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُنَا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ **فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ** تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ)[6]

وفي قوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: 4] تتجلى أسمى معاني التذلل والافتقار بين يدي الخالق سبحانه؛ إذ استهل نبي الله زكريا –عليه السلام– مناجاته بإظهار ضعفه البشري وانكساره التام، مستجلبًا بذلك رحمة الله وعطفه، ومعلنًا انقطاع رجائه من أسباب الدنيا الفانية. وهذا من رفيع أدب الدعاء؛ أن يبث العبد شكواه، ويفصح عن حاجته، ويُظهر مدى فاقته إلى مولاه، فكلما تقدم بالإنسان العمر، ازداد يقينًا بضعفه وتجردًا لربه. وفي ذلك يقول المصطفى ﷺ: «أَعْذَرَ اللَّهُ إِلَى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حَتَّى بَلَّغَهُ سِتِّينَ سَنَةً»[7]؛ إذ إن بلوغ الستين هو دُنوٌّ من معترك المنايا، وموسم الإنابة الصادقة، والرجوع الخالص إلى الله، وترقب لقاء الآخرة[8].

ويزداد المشهد جلالًا حين ندرك أن زكريا –عليه السلام– لم يكن من أولئك الذين يشقون بطلب حطام الدنيا والتعلق بزخرفها، على خلاف ما جُبلت عليه طباع أكثر البشر؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «يَكْبَرُ ابْنُ آدَمَ وَيَكْبَرُ مَعَهُ

---

[1]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 970
[2]) أحكام القرآن للكيا الهراسي ج4 ص 1
[3]) البحر المديد ج3 ص 446
[4]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 382
[5]) مجموع الفتاوى ج15 ص 17
[6]) رواه البخاري ج10 ص 169 رقم 2770
[7]) رواه البخاري ج20 ص 44 رقم 5940
[8]) التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوي ج1 ص 338 مع تعديل الصياغة

اثْنَانِ: حُبُّ الْمَالِ وَطُولُ الْعُمُرِ»[1]. أما نبي الله زكريا، فلم يأبه في كبره بمتاع الدنيا الزائل، بل انصرف همّه كله إلى شؤون آخرته، وحمل رسالة السماء، وتوريث دعوته لمن يحمل لواءها من بعده. ولأن مقاصده كانت خالصة لوجه الله ومرتبطة بعمل الآخرة، فقد ألف الإجابة وعوّده ربه العطاء، متحليًا بذلك بأدب النبوة الرفيع، مترفعًا عن حرص الأقران الذين يزدادون تعلقًا بالدنيا كلما تقادمت بهم السنون، فيشقون بها وبتبعاتها.

ومن تمام الأدب في مقام الدعاء، ألا يقع العبد في شقاء الاستعجال، فيملّ الانتظار أو ييأس قائلًا: قد دعوت فلم يُستجب لي؛ إذ حذّر النبي ﷺ من ذلك بقوله: «يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ، يَقُولُ: دَعَوْتُ فَلَمْ يُسْتَجَبْ لِي»[2]. بل ينبغي للداعي أن يُديم قرع باب مولاه بالإلحاح وحسن الظن، متوسلًا إليه بسابق فضله وجميل عوائده؛ وكما قرر شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في معنى الآية: «إنه دعاء المسألة، والمعنى: أنك عوّدتني إجابتك، ولم تشقني بالرد والحرمان، فهو توسل إليه –سبحانه وتعالى– بما سلف من إجابته وإحسانه، وهذا ظاهر هاهنا[3].

وفي قول (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا) [مريم: 5]، تتجلّى أسمى معاني التضرع والافتقار إلى الله، ممزوجةً بصدق النية وتجريد المقصد؛ إذ يقدّم زكريا بين يدي سؤاله عذرًا يبرّئ فيه نفسه من حظوظ الدنيا وشهواتها، مبينًا لربه أن طلبه للولد الصالح لم يكن بدافع الفطرة البشرية فحسب، بل كان بدافع الغيرة على دين الله والخشية عليه من الضياع. لقد نظر بعين البصيرة إلى من حوله من الموالي والأقارب، فلم يرَ فيهم من يملك الأهلية لحمل أمانة الرسالة أو الحفاظ على شرائع الدين ونظامه من بعده، فتملّكته الخشية من أن تضيع معالم الشريعة في أيديهم[4].

ومن هنا، تاقت نفسه إلى أن يمنّ الله عليه بوارثٍ صالح، ليكون غرسًا طيبًا يورثه العلم والدين، ويستنّ بذلك سنةً حسنةً يجري له أجرها، ويستمر بها نفعها في الأجيال القادمة. ورغم يقين زكريا التام بأن الله متكفّل بحفظ دينه به أو بغيره، وبعقبه أو بسواهم، إلا أنه طمع في كرم الله وفضله أن يجعله سببًا ومفتاحًا لهذا الخير، فينال بذلك شرف البلاغ وعظيم المثوبة.

ولم تقف الأسباب المادية حائلًا بين قلب زكريا وبين رجائه في ربه؛ فرغم أن امرأته عاقر لا تلد، وقد بلغ هو من الكبر عتيًّا حتى وهن منه العظم واشتعل الرأس شيبًا، إلا أن قلبه ظلّ معلقًا بمسبب الأسباب لا بالأسباب ذاتها. لقد أدرك ببصيرته أن الأسباب ما هي إلا سننٌ كونية نتعبد الله بالأخذ بها، أما القدرة المطلقة فهي بيد الله وحده، الذي يفيض برحمته على عباده متى شاء، وكيف شاء، وبلا سبب، فسبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ولما صدقت نية زكريا، وخلصت دعوته لوجه الله وخدمة دينه، استجاب الله له ووهبه "يحيى"؛ ليكون امتدادًا لرسالته وسببًا في استمرار عمله الصالح بعد انقضاء أجله. وهنا تتجلى حكمة عظيمة؛ فطلب الولد الصالح هو في حقيقته طلبٌ للجنة وسعيٌ لنيل رضوان الله، مصداقًا لقول النبي ﷺ : «أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[5]. وهكذا تتنوع سبل الدعاء وطلب الجنة؛ فتارةً يسألها العبد صراحةً، وتارةً يسأل الله التوفيق لأسبابها من الأعمال الصالحة التي تبلّغه إياها.

ويؤكد هذا المعنى ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «مَا تَقُولُ فِي الصَّلَاةِ؟» قال: أتشهد، ثم أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار، أما والله ما أحسن دندنتك ولا دندنة معاذ، فقال النبي صلى الله عليه

---

[1]) رواه البخاري ج20 ص 46 رقم 5942
[2]) رواه البخاري ج19 ص 416 رقم 5865
[3]) مجموع فتاوى ابن تيمية ج3 ص 233
4) أبو القاسم الحسين بن محمد : المفردات في غريب القرآن ج1 ص 162
[5]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 28 رقم 38 ورواه مسلم ج8 ص 405 رقم 3084 وذلك في معرض قوله ﷺ (إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ)

وسلم: «حَوْلَهَا نُدَنْدِنُ»[1]. وقد علّق الحافظ ابن رجب رحمه الله على هذا الحديث بقوله: "وهذا يشعر بأنه يجوز الدعاء بمصالح الآخرة بأي لفظٍ كان"[2]؛ لتبقى الغاية الأسمى هي صدق التوجه إلى الله، واستحضار معاني الآخرة في كل ما يطلبه العبد من ربه.

قوله (يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا) (6) يجدر التنويه إلى أن الأنبياء ليس لهم مال يجوز توريثه ، فأموالهم صدقة للناس ، فعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ فَاطِمَةَ وَالْعَبَّاسَ عَلَيْهِمَا السَّلَام أَتَيَا أَبَا بَكْرٍ يَلْتَمِسَانِ مِيرَاثَهُمَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُمَا حِينَئِذٍ يَطْلُبَانِ أَرْضَيْهِمَا مِنْ فَدَكَ وَسَهْمَهُمَا مِنْ خَيْبَرَ فَقَالَ لَهُمَا أَبُو بَكْرٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ)[3].

إذن تمنى زكريا على الله تعالى أن يهبه ولد يرث العمل الصالح منه ، فيظل عمله مستمرا بعد موته ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا)[4]، وفي رواية (إذا مات العبد انقطع عنه عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له)[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: 6]، يسترسل زكريا -عليه السلام- في مناجات ربه، كاشفاً عن الغاية السامية والدافع الأسمى وراء سؤاله الولد؛ ليكتمل بذلك عقد دعائه بالثلاث، امتثالاً لهدي النبوة الذي نقله ابن مسعود -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ : «**كَانَ إِذَا دَعَا دَعَا ثَلَاثًا، وَإِذَا سَأَلَ سَأَلَ ثَلَاثًا**»[6].

وقد انتظم هذا الدعاء في ثلاث مرات ؛ استهلها بقوله: ﴿وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ توطئةً وتمهيداً بين يدي الرجاء، ثم ثنّى بقوله: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ إفصاحاً عن جوهر المطلوب، ليختم بالثالثة في قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ تطلعاً لأن يقرّ الله عينه بثمرة الإجابة وكمال العطاء. وبين كل مرة وأخرى، كان يبسط بين يدي خالقه دواعي الرجاء وبواعث الضراعة؛ فصوّر ضعفه، وقدّم أمله، وبثّ مخاوفه، ثم رفع حاجته[7].

وتتجلى الغاية الأخيرة من هذا الابتهال في أن يرزقه الله ولداً تتحقق فيه معاني الرضا، ليكون عبداً مرضياً عند ربه وراضياً بقضائه. فالرضا هو نقيض السخط، وهو الباب الأعظم لتحقيق العبودية الحقة لله؛ ولذلك قيل: «فمن لم يرضَ بقضاء الله، ولم يصبر على بلاء الله، فكيف له أن يكون عبداً لله؟»[8]. وقد أرسى النبي ﷺ هذا الأصل بقوله: «وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، **فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا**، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[9].

إذ **لا منزلة وسطى بين الرضا والسخط**؛ فمن لم يستسلم لقضاء الله وقدره راضياً، فقد وقع في دائرة السخط، وسخط العبد على أقدار الله يناقض تمام الإيمان ويستلزم سوء الظن بالخالق، بل هو ضربٌ من منازعة الرب -سبحانه-

---

[1]) رواه ابن ماجة ج 11 ص 301 رقم 3837 وصححه ابن ماجة ج2 ص 328 رقم 3103
[2]) فتح الباري لابن رجب ج5 ص 189
عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَنِي سَلِمَةَ يُقَالُ لَهُ سُلَيْمٌ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ يَأْتِينَا بَعْدَمَا نَنَامُ وَنَكُونُ فِي أَعْمَالِنَا بِالنَّهَارِ فَيُنَادِي بِالصَّلَاةِ فَنَخْرُجُ إِلَيْهِ فَيُطَوِّلُ عَلَيْنَا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ لَا تَكُنْ فَتَّانًا إِمَّا أَنْ تُصَلِّيَ مَعِي وَإِمَّا أَنْ تُخَفِّفَ عَلَى قَوْمِكَ ثُمَّ قَالَ يَا سُلَيْمُ مَاذَا مَعَكَ مِنْ الْقُرْآنِ قَالَ إِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَأَعُوذُ بِهِ مِنْ النَّارِ وَاللَّهِ مَا أُحْسِنُ دَنْدَنَتَكَ وَلَا دَنْدَنَةَ مُعَاذٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهَلْ تَصِيرُ دَنْدَنَتِي وَدَنْدَنَةُ مُعَاذٍ إِلَّا أَنْ نَسْأَلَ اللَّهَ الْجَنَّةَ وَنَعُوذَ بِهِ مِنْ النَّارِ ثُمَّ قَالَ سُلَيْمٌ سَتَرَوْنَ غَدًا إِذَا الْتَقَى الْقَوْمُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ قَالَ وَالنَّاسُ يَتَجَهَّزُونَ إِلَى أُحُدٍ فَخَرَجَ وَكَانَ فِي الشُّهَدَاءِ رَحِمَهُ اللَّهُ وَرِضْوَانُهُ عَلَيْهِ (رواه أحمد ج34 ص 307 رقم 20699)
[3]) رواه البخاري ج20 ص 447 رقم 6230
[4]) رواه مسلم ج13 ص 181 رقم 4843
[5]) رواه البخاري في الأدب المفرد ج1 ص 28 رقم 38 ورواه مسلم ج8 ص 405 رقم 3084
[6]) رواه مسلم ج9 ص 275 رقم 3349
[7]) في هذا المعنى : في ظلال القرآن ج5 ص 89
[8]) مثله في شعب الإيمان للبيهقي ج1 ص 218 رقم 200 ، والمعجم الكبير للطبراني ج22 ص 320 وغيره ، وهو أثر ضعيف إذا روي كحديث قدسي
[9]) رواه الترمذي ج8 ص 415 رقم 2320 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 396

في اختياره وتدبيره؛ إذ يختار الله أمراً ويرتضيه لعبده، فيأباه العبد ولا يرتضيه، وذلك عين التنافي مع جوهر العبودية ومقتضاها[1].

في قوله ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 7]، تتجلّى منزلةٌ رفيعةٌ خصَّ الله بها نبيَّه يحيى عليه السلام؛ إذ سماه بنفسه قبل أن يُبصر النور، ولم يَكِل تسميته لأبيه، وفي ذلك منقبةٌ جليلةٌ أشار إليها العلّامة الشنقيطي[2]. وقد استنبط الشيخ محمد متولي الشعراوي لطيفةً بديعة من دلالة هذا الاسم؛ فسُمِّي «يحيى» ليكتب الله له الحياة الأبدية، إذ مضى شهيدًا في سبيل الله، والشهيد حيٌّ يُرزق عند ربّه[3]، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 154]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران: 169).

وحول واقعة استشهاده عليه السلام، يوضح الشيخ محمد صالح المنجد أن تفاصيل مقتله وكيفيته لم ترد في نصٍّ قرآني ولا في حديثٍ مرفوعٍ صحيح إلى النبي ﷺ ، غير أن الخبر قد شاع واستفاض بين الصحابة والتابعين، وتناقلته الآثار التاريخية[4]. ومن ذلك ما رُوي عن منصور بن صفية عن أمه، حين دخل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما المسجد وابن الزبير مصلوب، فأقبل على السيدة أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما يواسيها ويُذكّرها بالصبر قائلًا: «إن الجيفة ليست بشيء، وإنما الأرواح عند الله، فاصبري واحتسبي»، فأجابته بيقينٍ راسخ: «وما يمنعني من الصبر، وقد أُهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل!) [5].

وتُفصّل الروايات سبب تلك الفاجعة؛ فقد روى هشام بن عروة عن أبيه أن يحيى بن زكريا ما قُتل إلا بسبب امرأةٍ بغيٍّ اشترطت على صاحبها ألا ترضى عنه حتى يأتيها برأسه، فذبحه وقدّمه لها في طست[6]. كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عيسى عليه السلام بعث يحيى في اثني عشر من الحواريين يُعلّمون الناس شرائع الدين، فكان مما نهوا عنه نكاح ابنة الأخ، وكان لملكهم ابنة أخٍ أراد الزواج منها، وكانت تطلب منه كل يومٍ حاجةً فيقضيها لها، فلما علمت أمها بذلك أوعزت إليها أن تطلب ذبح يحيى بن زكريا، فلما سألها الملك حاجتها أصرّت على هذا المطلب، فحاول ثنيها فأبت، عندئذٍ استدعى يحيى وطلب طستًا فذبحه[7].

ورغم فداحة هذا المصاب، فإن سنة الله في حفظ دينه ماضيةٌ لا تتبدّل؛ فقد صان الله رسالته وأورثها لمن بعده، فالدين باقٍ وإن رحل حمَلَته، ينقله الله إلى أجيالٍ أخرى تصون الأمانة وتُبلّغها للناس، بينما تظل دماء الشهداء حُجّةً قائمةً لله على عباده.

وعلى جانبٍ آخر، نال نبي الله زكريا عليه السلام الجزاء الأوفى على صبره واحتسابه في فقد ولده، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ : «إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ: قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ؟

---

[1]) في هذا المعنى : مجلة جامعة أم القرى ج5 ص 409
[2]) أضواء البيان للشنقيطي ج3 ص 367
[3]) تفسير الشعراوي ج1 ص 4244
[4]) https://islamqa.info/ar/answers/470412/
5) ابن أبي شيبة في "المصنف" (533/17) بسند رواته ثقات ، وصححه محققو المصنف
6) ابن أبي شيبة ، في "المصنف" (533/17)، بسند رواته ثقات.

7)الطبري في "التاريخ" (586/1) بسند ظاهره الحسن

فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: مَاذَا قَالَ عَبْدِي؟ فَيَقُولُونَ: حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ، فَيَقُولُ اللَّهُ: ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ) [1].

وفي قوله : ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8]، تتجلى لحظةٌ إيمانيةٌ آسرة؛ إذ لم ينطق زكريا عليه السلام بهذا التساؤل عن شكٍّ في قدرة الخالق، وهو العارف يقينًا أن الأسباب الدنيوية تتلاشى أمام مشيئة الله الذي إذا أراد شيئًا قال له: كن فيكون. وإنما كان نداءً يفيض دهشةً وانبهارًا، واستشرافًا شغوفًا لمعاينة الكيفية التي ستُنسج بها خيوط هذه المعجزة، وتتسخر لها الأقدار؛ إذ كيف تُزهر الحياة في رحم امرأةٍ لم تعرف الإنجاب قط، وفي جسد شيخٍ بلغ من الكِبَر عِتيًّا، فوهن عظمه وتبددت قواه؟

لقد كان سؤال العبد المندهش من عظمة العطاء، المتشوّق لاستكشاف مسالك القدرة الإلهية؛ أهي أسبابٌ واهنةٌ سيبعث الله فيها الروح والقوة، أم هو خرقٌ تامٌّ لنواميس الكون يأتي بالولد من غير سببٍ مألوف، كما يُنشئ الله الخلق من العدم؟

وقد أشار الإمام الطبري إلى هذا المعنى العميق مبيّنًا أن تساؤل زكريا كان استكشافًا لوجه هذه البُشرى: هل سيعيد الله إليه فتوة الشباب ويُصلح من شأن زوجته العاقر لتلد على وفق السنن المعتادة[2]، أم أن الولد سيأتي هبةً ربانيةً خالصةً تتجاوز حدود الأسباب؟ وهنا تكمن المفارقة البديعة؛ فقد كان زكريا هو الداعي السائل، ثم غدا هو المتعجب المبهور حين فاجأته الإجابة بعطاءٍ يفوق تصور البشر.

وهو ما أكده ابن كثير؛ إذ أوضح أن هذا التساؤل إنما هو تعجّبُ فرحٍ غامرٍ واستبشارٍ عظيمٍ حين أُجيبت دعوته، فراح يستجلي كيفية مجيء هذا الغلام، وقد اجتمعت موانع الإنجاب كلها؛ امرأةٌ عاقرٌ شاخت ولم تلد قط، وشيخٌ جليلٌ بلغ من الكبر مبلغًا نَحَل معه عظمه وانقطعت أسباب الولد لديه، فجاءت البُشرى لتُثبت أن القدرة الإلهية لا تحدّها قوانين الطبيعة ولا قيود الزمن[3].

قوله (قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) (9) جاء الردّ الإلهيّ مطمئنًا ومبشّرًا؛ إذ يَعِدُه الحقُّ سبحانه بهبةِ الولدِ عبر إنفاذِ الأسبابِ الواهية وبثِّ الحياةِ فيها. وما هذا الحدثُ الجليل إلّا آيةٌ تتجدّد مع كلِّ صرخةِ وليدٍ يبصر النور؛ فالميلادُ في جوهره معجزةٌ قائمةٌ بذاتها، ففيمَ الدهشةُ والعجبُ من معجزةٍ تحاكيها في الإيجاد والإبداع؟

ويأتي التذكيرُ الإلهيّ الحاسم: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾، ليرسّخ سنّةَ الله في الكون؛ فهو سبحانه يُجري خوارقَ العادات مقرونةً بأسبابها. فهذا كليمُ الله موسى يُلقي عصاه فتسعى ثعبانًا مبينًا، ويضرب بعصاه عبابَ البحر فينفلق كالطودِ العظيم؛ إشارةً ربّانيةً إلى أنَّ السعيَ البشريّ — مهما بدا ضئيلًا — هو المفتاحُ الذي تتنزّل عنده المعجزات، مصداقًا لقوله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾. وهكذا تبقى القدرةُ الإلهيةُ طليقةً لا يحدّها قيد؛ تخلق بالأسباب تارةً، وتبدع من العدم المحض تارةً أخرى

---

[1]) رواه الترمذي ج4 ص 154 رقم 942 وصححه الألباني : صحيح سنن الترمذي 21/3 رقم 1021، السلسلة الصحيحة ج 3ص 398رقم 1408
[2]) تفسير الطبري ج18 ص 149
[3]) تفسير ابن كثير ج5 ص 214

في قوله :﴿قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيٓ آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾، يتجلى شوق العبد الأوّاب إلى استشعار بشائر الإجابة؛ فقد ضرع إلى ربه أن يجعل له أمارةً تلوح في الأفق، تنبئه بقرب وقوع المعجزة وتنزل الفرج، **ليتهيأ قلبه لاستقبال هذه البشرى، ويستجمع جوارحه للقيام بحق الشكر للمنعم** سبحانه دون تقصير؛ إذ أراد أن يرتشف حلاوة النعمة منذ بواكيرها الأولى.

فجاءه الجواب الإلهي رابطًا بين أمارة المعجزة وبين الانقطاع التام لشكرها؛ وكأن الله يرشده إلى أن هذه المنة العظيمة تستوجب خلوةً خالصةً للحمد والثناء. فكانت الآية أن يُحبس لسانه عن مخاطبة البشر ثلاث ليالٍ متتابعات وهو في تمام صحته وعافيته؛ حبسًا قهريًا باختيار الله لا بقدرته، ليتفرغ محرابه لذكر الله ومناجاته. وفي ذلك حكمة بالغة؛ إذ إن الخوض مع الناس في أمرٍ غيبيّ لم تكتمل فصوله بعدُ لا يجدي نفعًا، بل قد يبدد صفاء الخلوة؛ مصداقًا لقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا: قِيلَ وَقَالَ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ**»[1].

قوله (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (11) اعتكف زكريا في محرابه . فكان نموذجا يصور لنا مظهر من مظاهر العبودية الصادقة والتبليغ الرباني؛ فقد آثر نبي الله زكريا عليه السلام الخلوة في محرابه، معتكفا فيه ، منقطعا عن مخالطة الناس ليتفرغ للصلاة والدعاء والابتهال. فقد بلغ من الكبر عتيًّا، فتلك هي عبادة أصحاب الأعذار ؛إذ لم تعد قواه تسعفه لخدمة الناس أو خوض غمار الجهاد في سبيل الله، فجعل من محرابه ميدانًا لجهاده، ومن مناجاته سلاحًا يتضرع به إلى مولاه؛ فأصحاب الأعذار هم الذين يرفع الله بهم البلاء، وببركة دعائهم يُنصر العباد وتُرحم البلاد. ولعلنا ننتصر بهم ، ولذلك قيل أنه (لولا شباب خشع وبهائم رتع وشيوخ ركع وأطفال رضع لصب عليكم العذاب صبا)[2] . وقال رسول الله ﷺ (**هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم؟**) رواه البخاري، وفي رواية (**إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**). رواه النسائي

ولم يكتفِ زكريا عليه السلام بصلاح نفسه، بل أتمّ رسالة البلا غ وواجب الدعوة؛ فحين مُنع لسانُه من الكلام آيةً من ربه، لم يعجز عن الهداية، فخرج إلى قومه وناجاهم بلغة الإشارة والإيماء، آمرًا إياهم بأعظم القربات :(أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) .لقد كان صمته ناطقًا، وإشارته بليغةً تغني عن فصيح العبارة؛ فـ"لسان الحال أبلغ من لسان المقال"، لا سيما في ميادين الطاعة والحضّ على العبادة. فمن أراد أن يستنهض همم الناس لطاعة الله، فليكن هو السبّاق إليها، حتى يقتدوا بفعله، ويستنّوا بسنته، فيفوز بأجرهم دون أن ينقص من أجورهم شيء.

ولذلك قال الإمام الشافعي (مَن وعظ أخاه بفعله كان هاديًا)وقال الحسن البصري «عِظِ الناس بفعلك، ولا تعظهم بقولك»[3]. يقصد أن يكون همك وعظهم بالقدوة الحسنة . فذلك أبلغ من القول . فالقدوة الصالحة هي الدعوة الصامتة؛ فالناس يتأثرون بأفعال الداعي وسمته وهديه أكثر مما يتأثرون بمجرد أقواله[4] ، فإذا تطابق القول والعمل وقعت الموعظة في القلب موقع الغيث من الأرض العطشى[5] .

---

[1]) رواه البخاري ج5 ص 328 رقم 1383
[2]) قول مأثور رواه البيهقي ج3 ص 345 رقم 6183
[3]) الزهد ج1 ص 273
[4])علي بن نايف الشحود : الجامع في الرسائل الدعوية ج2 ص 296
[5]) القرافي : الذخيرة ج1 ص 105 ، موسوعة البحوث والمقالات العلمية لعلي بن نايف الشحود 93

قوله (يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) (12) هذا النداء الربانيٌّ يفيض بالحزم والتكليف، حيث يُشير الإمام الرازي إلى تلازم "**اليد والقوة**"[1]؛ إذ تغدو "القوة" هنا رمزًا للمنهج القويم الذي يصوغ حركة الإنسان في دروب المجتمع. وقد أوجز سعيد بن جبير جوهر هذا الأمر بقوله: "**اعمل بما فيه من فرائضه**"[2]، ليرسم لنا مشهدًا حيًّا **لعزيمةٍ لا تلين**، وإرادةٍ تُقبل على أوامر السماء بجدٍّ وحرصٍ لا يعرفان التراخي أو التسويف، ولا ينكسران أمام وعورة الطريق أو مشقّة التكليف، كحال القويّ المتمكّن الذي تذلّ له الصعاب[3]. ويُضيف الرازي موضحًا أبعاد هذه القوة؛ **فهي اجتهادٌ دؤوب في صون الأمانة، وصلابةٌ في حمل لواء الدعوة، وترفّعٌ عن إظهار الوهن أو الاستكانة**[4].

ومن زاويةٍ تأمليةٍ بديعة، يُبيّن الشيخ الشعراوي أن **القوة هي تلك الطاقة الفاعلة** التي تُسيّر دولاب الحياة بين حركةٍ وسكون؛ فالكتاب يحمل بين دفتيه أوامر بالخير ونواهيَ عن الشر. وحين يدعوك المنهج إلى فضيلةٍ تقاعستَ عنها، فأنت بحاجةٍ إلى "**قوة دفعٍ**" تبعث فيك الهمّة وتُحرّكك نحوها، وحين يزجرك عن رذيلةٍ انغمستَ فيها، فأنت أحوج ما تكون إلى "**قوة كبحٍ**" تكفّ جماحك وتُسكّن اندفاعك. وهكذا يغدو المنهج الإلهي هو تلك القوة المزدوجة التي تستنهضك للخير وأنت ساكن، وتكفّك عن الشر وأنت متحرك[5]. لقد أراد الله ليحيى عليه السلام أن يكون تجسيدًا حيًّا لهذا المنهج الرباني في واقع الناس، وفي توجيه هذا الخطاب الجليل إليه دلالةٌ بالغة على ما بلغه يحيى من نضجٍ وكمالٍ أهّلاه لحمل هذه الأمانة العظيمة ، وهو لا يزال في ريعان الصبا[6].

وقوله (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) **إشارةٌ ربانيةٌ عميقة** للاهتمام بالصبية وتربيتهم علي إدارة شئون الحكم منذ الصغر ، فمعلوم أن "بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ تَسُوسُهُمْ أَنْبِيَاؤُهُمْ كُلَّمَا ذَهَبَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ " [7]، وهو ما يعني من باب أولى تربيتهم على إدارة شئون أنفسهم وأهلهم وأصحابهم ، ما يعني كذلك تربيتهم على تزكية أنفسهم من باب أولى وأولى ؛ إذ يجلّي الإمام الطبري معناها بقوله" :**وأعطيناه الفهم لكتاب الله في حال صباه، قبل بلوغه أسنان الرجال**."[8]

ويتجلى هذا المنهج التربوي النبوي في شهادة الصحابي الجليل جندب بن عبد الله رضي الله عنه حين قال" :كُنَّا غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، **فَيُعَلِّمُنَا الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ**، ثُمَّ يُعَلِّمُنَا الْقُرْآنَ فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا، وَإِنَّكُمُ الْيَوْمَ تُعَلِّمُونَ الْقُرْآنَ قَبْلَ الإِيمَانِ"[9].

ومن هذا النبع الصافي ندرك قاعدةً راسخةً في بناء الإنسان؛ وهي أن التزكية تسبق التحلية، وأن العلم يُمهّد للعمل، وأن التربية وتهيئة النفوس مقدّمةٌ على التكليف؛ فبغرس الإيمان أولاً تُزهر القلوب، وتتهيأ لاستقبال نور الوحي والعمل به عن بصيرةٍ ويقين.

---

[1]) تفسير الرازي ج13 ص 170
2) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 251 رقم 14117
[3] التحرير والتنوير ج8 ص 283
[4]) تفسير الرازي ج13 ص 170
[5]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5514
[6]) تفسير الرازي ج10 ص 276
[7]) رواه ابن ماجة ج8 ص 408 رقم 2862 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 144
[8]) تفسير الطبري ج18 ص 155
[9]) رواه البيهقي في سننه الكبرى ج3 ص 120 رقم 5075 ورواه ابن ماجة ج1 ص 70 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج1ص16 رقم 52

قوله (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) (13) صفة ليحيى ، أن أتاه الله الحنان اللدني (تعطفاً من ربه عليه) فهو مجبول على الحنان دون تكلف منه ، وهذا منة من الله على والديه ، أن يرزقهما ولدا يحن عليهما في كبرهما ، فعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، فِي قَوْلِهِ" وَحَنَانًا" قَالَ: لا أدري مَا هُوَ، إلا أني أظنه تعطف الله عَلَى خلقه بالرحمة"[1].

وقوله (زكاة) أي طاهرا من الآثام ، فلم يعص الله قط .

وقوله (وكان تقيا) أي مجتنبا لنواهي الله تعالى ، وذلك يرادف المعنى المذكور في قوله (وَسَيِّدًا وَحَصُورًا) (آل عمران/39) ، فلا هم له في معصية .

في رحاب الآيات البينات، ؛ إذ يقول الحق تبارك وتعالى :"وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةًۖ وَكَانَ تَقِيًّا"] مريم: 13.[

وفي قوله (وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا) (13) تتجلى عظمة العطاء الإلهي في وصف نبي الله يحيى عليه السلام ، فقد أسبغ الله على نبيه يحيى عليه السلام رداءً من الرحمة الفطرية والحنان اللدني؛ فجبل فؤاده على الرأفة والرفق سجيةً وطبعاً بلا تكلف[2]، وجعله قرة عين لوالديه، وبلسماً يفيض عليهما بالبر والإحسان في كبرهما وضعفهما.

وقد وقف حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما متأملاً جلال هذه اللفظة، فقال في تفسير قوله تعالى "وَحَنَانًا" (لا أدري ما هو، إلا أني أظنه تعطف الله على خلقه بالرحمة)[3].. وهذا يلتقي مع المعنى الجليل الذي قرره النبي ﷺ في حديث الراحمين"**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**"[4].

ثم يكتمل العقد النوراني في وصفه بقوله تعالى :"وَزَكَاةً"؛ أي طهارةً ونقاءً من أدران الذنوب والآثام. فقد عصمه الله وطهر سريرته وعلانيته، فلم يدنس صحيفته بمعصية قط، ولم يهمّ بخطيئة. قال مجاهد وقتادة في تفسير" وَزَكَاةً" أي: عملاً صالحاً زكياً، وطهارةً من الذنوب".

ويُتوَّج هذا البناء الأخلاقي الرفيع بقوله سبحانه :(وَكَانَ تَقِيًّا)؛ أي متوقياً سخط الله باجتناب نواهيه والمسارعة إلى مراضيه، مما يجعل قلبه معلقاً بالملأ الأعلى، لا همّ له في شهوة ولا ميل إلى معصية. وهذا المعنى يشد أزره ويفسره قوله تعالى في سورة آل عمران في البشارة به :(**وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ**) (آل عمران: 39)؛ حيث فسر أهل العلم «الحصور» بأنه الذي حبس نفسه عن الشهوات والآثام كفّاً وعفةً وتقوى. وفي مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال في شأن يحيى بن زكريا :"**ما من أحد من ولد آدم إلا قد أخطأ أو همَّ بخطيئة ليس يحيى بن زكريا** "[5].وهكذا اجتمعت في شخصه الكريم أسمى الخصال :رحمةٌ تفيض على الخلق، وطهارةٌ تزين النفس، وتقوى تعصم الجوارح.

قوله (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا)(14) يستبين أن أول من يستفيد بحنان الابن هما والديهم ، وهما أول من يتلقى منه المعاملة الحسنة ، فحسن الأخلاق والطباع يؤدي إلى إحسان العمل .

---

1) تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 251
2) الدر المنثور ج6 ص 442
3) تفسير ابن أبي حاتم ج 9 ص 251 ، رواه الطبري والبيهقي
4) رواه أبو داود والترمذي.
5) رواه أحمد ج5 ص 212 رقم 2180 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 483

فبرّ الوالدين، هو أول ثمرةٍ تُجنى من شجرة الأخلاق القويمة، وأصدق مقياسٍ لصفاء الفطرة وسلامة الطوية ؛ومن هنا يرسم لنا القرآن منهجًا ربانيًّا يربط بين حُسن الخُلق، ولين الجانب مع الوالدين، والبعد عن الكِبر والعصيان.

فإذا كانا الوالدان من أهل الصلاح والتقوى، فإنه يجتمع لهما شرف الأبوّة وفضل الاستقامة. فمتى طابت سريرة المرء وزكت طباعه، انعكس ذلك إحسانًا في القول والعمل، وبرًّا يغمر به والديه، مصداقًا لقوله ﷺ (**رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ، وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ**) [1]. قال الإمام القرطبي في هذه الآية (وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح)[2] أي كان محسنًا إليهما، متواضعًا لهما، غير متكبر ولا عاصٍ لأمرهما

وعلى النقيض من ذلك، فإنّ من جفا والديه، وحرمهما عطفه وبِرّه، فلن يُرجى منه خيرٌ لسائر الناس؛ إذ كيف يُحسن إلى البعيد من عقّ القريب، وكيف يفي للغرباء من تنكّر لأصحاب الفضل الأول؟! إنّ من يخرج عن دائرة البرّ يرتكس في حمأة الكِبر والتمرد، فيغدو» جَبَّارًا عَصِيًّا ؛ والجبار هو المتعالي المتكبر الذي يأنف من الانقياد للحق، والعصيّ هو المتمادي في مخالفة أمر الله تعالى وأمر والديه.

ففي قوله (وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا) قال الألوسي (**والمراد المبالغة في النفي لا نفي المبالغة**)[3] ، وقد ربط الحافظ ابن كثير بين طاعة الله وطاعة الوالدين واجتناب معصيتهما بقوله "لما أثبت الله تعالى له تمام الطاعة لخالقه، وما أودعه في فطرته من رحمةٍ وزكاةٍ وتقى، أتبع ذلك بالإشادة ببرّه لوالديه وحسن طاعته لهما؛ فقد نأى بنفسه عن كل صور العقوق، قولاً وفعلاً، وامتثالاً لأمرهما واجتناباً لنهيهما."[4].

ومن تأمل في دلالات اللغة وربطها بالمعاني الشرعية، أدرك أن لفظ «الجبّار» في حق المخلوقين يحمل معنى الطغيان والانفلات من الضوابط؛ فالإنسان المتجبر على والديه، المتفلت من قيود الأدب والشرع، يُشبه في اندفاعه وأذاه العَجْمَاء— أي البهيمة التي لا تنطق ولا تعقل— حين تنفلت فلا يملك الناس ردّها أو ضبط سلوكها، فيكون ضررها مُتوقَّعًا، وتصرفها غير مأمون[5]. وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ (**الْعَجْمَاءُ جُرْحُهَا جُبَارٌ، وَالْبِئْرُ جُبَارٌ، وَالْمَعْدِنُ جُبَارٌ**] متفق عليه[6]. ومعنى «جُبَار» هنا: أي هَدَرٌ لا دية فيه ولا تعويض عمّا تُصيبه البهيمة إذا انفلتت بغير تفريطٍ من صاحبها[7]. وهكذا حال العاقّ المتجبر؛ فإنه بانفلاته من زمام العقل والشرع، يُلقي بنفسه في مهاوي الهلاك والضياع، ويُصبح أذاه للناس هدرًا ووبالًا عليه في الدنيا والآخرة، إذ لا يردعه وازعٌ من دين، ولا يضبطه رادعٌ من مروءة أو حياء.

في قوله تعالى: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 15]، لفتة ربانية إلى ثلاث محطات في مسيرة الإنسان خالقه؛ يوم يبصر النور، ويوم يغادر الحياة، ويوم يُنشر حيًّا بين يدي الله بعد الممات. وقد أشار العلامة ابن عاشور إلى بديع هذا النظم بقوله: «فالمعنى: أن إكرام الله متمكنٌ من أحواله الثلاثة المذكورة، وهذه الأحوال الثلاثة أحوالُ ابتداء أطوار؛ طورُ الورود على الدنيا، وطورُ الارتحال عنها، وطورُ الورود على الآخرة، وهذا كنايةٌ على أنه بمحلّ العناية الإلهية في هذه الأحوال) [8].

---

1) رواه الترمذي
2) تفسير القرطبي ج11 ص 88
3) تفسير الألوسي ج11 ص 461
4) تفسير ابن كثير ج5 ص 217
5) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 405
6) رواه البخاري ج21 ص 226 رقم 6402
7) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 297
8) التحرير والتنوير ج16 ص 19

إن كل طورٍ من هذه الأطوار ينفرد بسماته ورهبته، ويسبقه سكون العدم والموت، ليُفضي الطور الأخير إلى أبدية الخلود. ففي لحظة الولادة، يستهلّ البشر الحياة بصراخٍ يعلن مشقّتها، غير أن عناية الله تحفّ أنبياءه فتعصمهم من نزغ الشيطان عند قدومهم. وفي ساعة الرحيل، تنهمر دموع الأحبّة حزنًا على الفراق، فيتنزّل السلام الإلهي سكينةً على روح النبي، ورباطًا من الصبر على قلوب ذويه. أما في يوم البعث، فتُشرق شمس الحياة الأبدية الآمنة لأهل النعيم، في مقابل شقاء الكافر الذي يتقلّب في عذابٍ لا يموت فيه فيستريح، ولا يحيا فيه حياةً هنيئة.

وقد استنبط الإمام أبو حيان من قوله تعالى ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ إشارةً لطيفةً إلى منزلة الشهادة، إذ قال: «تنبيهٌ على كونه من الشهداء؛ لقوله تعالى: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾»[1].

وهكذا يُكتب لنبي الله يحيى عليه السلام خلودُ النعيم في جنان ربه، وتتضاءل أمام هذه الحياة السرمدية كلُّ سنين عمره الدنيوي منذ مهده وحتى لحده؛ فقد قُتل وهو في ريعان شبابه، ليبقى في الآخرة شابًّا خالدًا، يرتع في رياض الجنة حيث شاء، محفوفًا بسلام الله وأمانه.

[1]) تفسير البحر المحيط ج8ص8

المحور الثاني

مريم تعتزل وتصمت وعيسى يتحدث

قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (21) فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا (26) فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (36) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (38) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)

لم تكن الرهبانية بدعةً انفرد بها النصارى فحسب، بل سبقهم إليها اليهود حين تعنّتوا مع نبيهم موسى عليه السلام وشدّدوا على أنفسهم في المسألة والتكاليف، فشدّد الله عليهم جزاء وفاقاً؛ إذ الرهبانية في حقيقتها صورة من صور الغلوّ والتنطّع في الدين ومجاوزة الحد المشروع. وقد حذّر النبي ﷺ من هذا المسلك الوخيم تحذيراً بالغاً بقوله: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ» [1].

إن شريعة الأنبياء جميعاً –بدءاً من ملة إبراهيم عليه السلام الحنيفية السمحة– قائمة على التوحيد والاعتدال، ولم يُشرع فيها البتة الانقطاع عن الزواج أو هجر الطيبات تعبّداً؛ لما في ذلك من مصادمة صريحة للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها. وبعد رفع عيسى ابن مريم عليه السلام، غلا أتباعه في الدين وابتدعوا ما لم يأذن به الله، فأنشؤوا الصوامع والديارات، وحبسوا أنفسهم فيها عن مخالطة الخلق وعن الزواج[2]، وقد أخبر النبي ﷺعن مآلهم بقوله: «لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَشَدَّدَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، فَتِلْكَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارِ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾»[3].. ويزداد هذا المعنى رسوخاً بحديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «رَدَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ التَّبَتُّلَ، وَلَوْ أَذِنَ لَهُ لَاخْتَصَيْنَا» متفق عليه.

---

[1]) رواه ابن ماجة ج9 ص 134 رقم 3020 وصححه الألباني : صحيح ابن ماجة ج2 ص 177 رقم 2455
[2]) صالح بن فوزان : إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد ج1 ص 264
[3]) رواه أبو داود ج13 ص 57 رقم 4258

ومن بديع حكم الله في قصة الصدّيقة مريم ابنة عمران عليها السلام، أنه سبحانه لما اصطفاها على نساء العالمين لتكون آية في القنوت والانقطاع للطاعة –حتى سُمّيت بالبتول لانقطاعها عن الرجال وتفرغها للعبادة[1]– لم يحرمها سبحانه من نعمة الأمومة، بل أجرى على يديها معجزة كبرى بأن وهبها ولداً من غير أب. وقد تضافرت في هذه المعجزة الإرادة الكونية القدرية مع المقاصد الشرعية؛ فأراد الله أن يُري قومها أن التفرغ للعبادة لا يصادم السنن الفطرية ولا يعطّل غاية الإنجاب وإعمار الأرض. ثم جاء إنطاق المسيح عليه السلام في المهد بقوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: 30]، ليكون ذلك برهاناً قاطعاً على كمال توحيد الله وتنزيهه عن الصاحبة والولد، وإثباتاً لعبودية عيسى عليه السلام لله، وفي الوقت ذاته إبطالاً لشبهات الغلاة الذين زعموا أن التبتل والترهبن وقطع النسل هو سبيل القرب من الله.

وقد جاءت الشريعة المحمدية الخاتمة لتُقرّر هذا الميزان الدقيق بين حقوق الروح ومتطلبات الجسد؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا أزواجه عن عمله في السر، فكأنهم تقالّوه، فقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا آكل اللحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش. فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا! لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» متفق عليه[2]. فالعزلة في الإسلام ليست مطلقة ولا دائمة، بل هي مقيدة بضوابط شرعية تتحقق بها المصلحة وتُدرأ بها المفسدة، كالاعتكاف المسنون أو اعتزال الفتن عند فساد الزمان، دون تعطيل للواجبات الشرعية والاجتماعية.

ويُستدل على بطلان الرهبانية في الشرائع السابقة أيضاً بقاعدة أصولية مقررة عند أهل العلم، وهي أن أصل دين الأنبياء واحد في العقائد ومكارم الأخلاق ومراعاة الفطرة، وإن اختلفت بعض الفروع؛ فكما أن «شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد ناسخ»، فإن ما ثبت ذمّه وتحريمه في شريعتنا لمخالفته أصل الفطرة ومقاصد الخلق –كالتبتل المفضي إلى قطع النسل– فهو مذموم في سائر الملل السماوية؛ لأن الله تعالى لا يشرع لعباده ما يناقض فطرته التي فطرهم عليها، قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (الروم: 30).

وبذلك يتجلى أن معجزة ميلاد المسيح عليه السلام جاءت لتُصحح مسار التطرف وتردّ الناس إلى جادة الاعتدال؛ فلا يُمنع الإنسان من حقّه الفطري في الزواج وبناء الأسرة بحجة التدين، إذ إن حقيقة التبتل المشروع إنما هي إخلاص القلب لله وتجريده من التعلق بغيره أثناء العبادة، لا تعطيل السنن الكونية ولا قطع النسل البشري.

قوله (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ[3] إِذِ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا) (16) هنا يضرب الله مثالا بمن عدها النبي ﷺ من بخير نساء الأرض ، مريم التي مدحها النبي بأنها من أربع نساء في العالم كمل عقلهن ، مريم ابنة عمران التي نذرتها أمها خالصة لوجه الله وهي في بطنها ؛ فتقبلها ربها بقبول حسن ، آوت إلى كنف نبي الله زكريا عليه السلامر، فصارت

---

[1]) فتح الباري ج9 ص 118 ،شرح النووي على مسلم ج9 ص 176 غريب الحديث لابن الجوزي ج1 ص 54 ، التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 208 ، تفسيرالطبري ج23 ص 687

[2]) رواه مسلم رواه مسلم ج7 ص 175 رقم 2487

[3]) قال ابن كثير (وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمّها لها في "آل عمران"، وأنها نذرتها محررة، أي: تخدم (2) مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك، { فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا } [آل عمران: 37] ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت (3) إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة (4) والتبتل والدءوب، وكانت في كفالة زوج أختها -وقيل: خالتها-زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم. ورأى لها زكريا من الكرامات الهائلة ما بهره { كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [آل عمران : 37] فذكر أنه كان يجد عندها ثمر (5) الشتاء في الصيف وثمر (6) الصيف في الشتاء، كما تقدم بيانه في "آل عمران". فلما أراد الله تعالى -وله الحكمة والحجة البالغة-أن يُوجد منها عبده ورسوله عيسى عليه السلام، أحد الرسل أولي العزم الخمسة العظام، { انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا } أي: اعتزلتهم وتنحت عنهم، وذهبت إلى شرق المسجد المقدس.)

مريمُ ملازمة لمحراب الطاعة، وقد عزفت عن زخرف الدنيا وبهرجها، وانقطعت بقلبها إلى مناجاة ربها، حتى صدق فيها قول الشيخ الشعراوي رحمه الله" :فكأن أُنسها لا بالأهل، ولكن أُنسها كان برب الأهل."[1].

وهذه الخلوة الروحية، وإن كانت من شرائع من قبلنا، إلا أن لها في شريعتنا الغراء أصلًا أصيلًا وموردًا عذبًا، لكنه محفوفٌ بضوابط الاعتدال دون غلوٍ أو إسراف. فقد كان قدوتنا محمد ﷺ يحيي سنة الاعتكاف، كما روى أبو هريرة رضي الله عنه: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْتَكِفُ كُلَّ رَمَضَانَ عَشَرَةَ أَيَّامٍ، فَلَمَّا كَانَ الْعَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ اعْتَكَفَ عِشْرِينَ يَوْمًا»[2]، وروى ابن عمر رضي الله عنهما أنه ﷺ «كَانَ يَعْتَكِفُ الْعَشْرَ الْأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ[3]»؛ فيحبس نفسه الشريفة في رحاب المسجد، منقطعًا عن شواغل الخلق، عاكفًا على تلاوة كتاب ربه، معمورًا وقته بالصلاة والذكر والتسبيح.

ومن هذا الهدي النبوي نستلهم حقيقة الاعتكاف وحدوده في ميزان الشرع[4] ؛ فهو عبادةٌ تتهذب بها الروح دون أن تصطدم بعمارة الأرض، أو تعطل مسيرة السعي في طلب الرزق، وقضاء حوائج الناس، ورعاية الأهل. فلم تكن العبادة يومًا ولا الدعوة إلى الله قيدًا يعزل المرء عن مجتمعه، بل الإسلام دين الوسطية والاتزان، كما أرشدنا المصطفى ﷺ بقوله: "الْقَصْدَ الْقَصْدَ تَبْلُغُوا".[5]

ولأجل حفظ هذا التوازن الدقيق، تباينت أنظار الفقهاء في حكم الاعتكاف في غير رمضان؛ فبينما ذهب الحنابلة إلى سنيته في كل وقت[6] ، نجد الشيخ ابن عثيمين رحمه الله يقف وقفة تأمل وتحقيق، مبينًا أن الأحكام الشرعية تُتلقى من هدي الرسول ﷺ، ولم يُنقل عنه ولا عن صحابته اعتكافٌ في غير رمضان إلا قضاءً، ولو كان مشروعًا على الإطلاق لاشتهر واستفاض لتوافر الدواعي لنقله، أما قصة نذر عمر رضي الله عنه أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام وإجازة النبي ﷺ له بقوله: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ»، فهي واقعة عين في الوفاء بالنذر لا تشريعًا عامًا يُندب إليه الناس في سائر العام[7].

وفي المقابل، استدل جمهور العلماء على مشروعيته في كل وقت بعموم الأدلة، مستأنسين بحديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها حين ضربت له ﷺ خباءً في المسجد، فتنافست أمهات المؤمنين حفصة وزينب رضي الله عنهن في ضرب الأخبية، فلما رآها النبي ﷺ قال: «آلْبِرَّ تُرَوْنَ بِهِنَّ؟»[8]، فترك الاعتكاف في رمضان ثم اعتكف عشرًا من شوال؛ فرأى الجمهور في فعله في شوال دليلًا على جوازه في غير رمضان[9]، بينما أجاب الآخرون بأنه كان قضاءً لسنة رمضان الفائتة. ومن خلال هذا السجال العلمي الرصين، يتجلى مدى حرص العلماء واحترازهم في هذه المسألة، خشية أن يتخذ الناس الاعتكاف الدائم ذريعةً للتواكل والانصراف عن أعباء الحياة وأعمالها.

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5519
[2]) رواه أبو داود ج6 ص 464 رقم 2110
[3]) رواه البخاري ج7 ص 156 رقم 1885
4) الاعتكاف لغة: اللبث وملازمة الشيء أو الدوام عليه خيراً كان أو شراً. ومنه قوله تعالى: {يعكفون على أصنام لهم}[الأعراف:7/138] وقوله: { ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون} [الأنبياء:21/53] وقوله سبحانه: {ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد} [البقرة:2/187].
أما تعريفه في اصطلاح الفقهاء متقارب ، قال الحنفية (1) : هو اللبث في المسجد الذي تقام فيه الجماعة، مع الصوم، ونية الاعتكاف، فاللبث ركنه؛ لأنه ينبئ عنه، فكان وجوده به، والصوم في الاعتكاف المنذور والنية من شروطه. ويكون من الرجل في مسجد جماعة: وهو ماله إمام ومؤذن، أديت فيه الصلوات الخمس أو لا، ومن المرأة: في مسجد بيتها: وهو محل عينته للصلاة، ويكره في المسجد، ولا يصح في غير موضع صلاتها من بيتها.
وقال المالكية (2) : هو لزوم مسلم مميز مسجداً مباحاً لكل الناس، بصوم، كافاً عن الجماع ومقدماته، يوماً وليلة فأكثر، للعبادة، بنية. فلا يصح من كافر، ولا من غير مميز، ولا في مسجد البيت المحجور عن الناس، ولا بغير صوم، أي صوم كان: فرض أو نفل، من رمضان أو غيره، ويبطل بالجماع ومقدماته ليلاً أو نهاراً، وأقله يوم وليلة ولا حد لأكثره، بقصد العبادة بنية، إذ هو عبادة، وكل عبادة تفتقر للنية.
وعبارة الشافعية (3) : هو اللبث في المسجد من شخص مخصوص بنية.
وعبارة الحنابلة (4) : هو لزوم المسجد لطاعة الله ، على صفة مخصوصة، من مسلم عاقل ولو مميزاً ، طاهر مما يوجب غسلاً، وأقله ساعة،
انظر : الفقه الإسلامي وأدلته للدكتور وهبة الزحيلي ج3 ص 121
[5]) رواه البخاري ج20 ص 99 رقم 5982
[6]) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل ج1 ص 321 ، البهوتي : الروض المربع شرح زاد المستقنع ج1 ص 167
[7]) الشرح الممتع على زاد المستقنع ج6 ص 504
[8]) رواه البخاري ج7 ص 168 رقم 1892
9) أ . د / خالد بن علي المشيقح / فقه الاعتكاف ج1 ص 16

ثم نعود إلى مريم البتول، لنتأمل سر اختيارها للمكان الشرقي؛ فقد آثرت مطلع الشمس لتستقبل أول خيوط النور وتستدفئ بأشعتها، في دلالةٍ لطيفة على أن خلوتها لم تكن انقطاعًا مريبًا عن أهلها، بل كانت تخرج مع إشراقة الصباح للعبادة، ثم تأوي إلى بيتها قبل غروب الشمس وحلول الظلام. وفي هذا المسلك الحكيم غاية الاحتراز وصونُ النفس، مراعاةً لطبيعتها الأنثوية التي أشار إليها القرآن بقوله :(وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى) (آل عمران: 36).

وهكذا يرسخ الإسلام قاعدةً ذهبية للمرأة المسلمة؛ فلها كامل الحق في الخروج لشهود الخير والعبادة في بيوت الله، لا يملك أحدٌ حجرها أو منعها ما لم يتعارض ذلك مع واجبٍ أسمى أو حقٍ أَوْلى. ويشهد لذلك الوصية النبوية الخالدة التي رواها ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ : «لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ»[1]، حتى بلغ من تعظيم الصحابة لهذا الأمر ما رواه ابن عمر عن امرأة أبيه عاتكة بنت زيد، إذ كانت تشهد صلاة الصبح والعشاء في المسجد، فقيل لها: لِمَ تخرجين وقد تعلمين أن عمر يكره ذلك ويغار؟ فأجابت بيقين المؤمنة الواثقة بعدل الشرع: "وما يمنعه أن ينهاني؟"، قال: "يمنعه قول رسول الله ﷺ"لا تمنعوا إماء الله مساجد الله."[2].




ومن جهة أخرى فلها أن تخرج للتريض في الحدود التي يقرها الشرع [3] ، فالحفاظ على بدن المرأة بالرياضة ضرورة من الضرورات الشرعية ، ولولاها لتيبست المفاصل ولضعفت الدورة الدموية وهزلت العضلات ، مما يجعلها ضعيفة لا تتحمل الحمل ولا الولادة ولا الرضاعة سنتين كاملتين ، ولا طاعة زوجها ، ولا تحمل مسئوليات الأولاد ، وتلك الأمور هي عبادات لله تعالى لو أخلصت النية .

فمعنى أنها ابتبذت من أهلها مكانا شرقيا أنها مشت وسارت مسافة بعيدة عنهم ، في اتجاه المشرق لتتنسم الهواء ، وقد كان النبي ﷺ يعتني بالمرأة وبرياضتها ، فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي سَفَرٍ قَالَتْ (فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجْلَيَّ فَلَمَّا حَمَلْتُ اللَّحْمَ سَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي فَقَالَ هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَةِ)[4].

قوله (فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا)(17) قال ابن كثير أي: (استترت منهم وتوارت)[5] ، ما يعني أنها لم تخرج لتظهر نفسها وتتراءى للمارة ، بل قصدت بذلك أن تبلغ محرابا للعبادة وحسب ، فلما خرجت التزمت بالضوابط الشرعية لخروج المرأة ، وتميزت مريم عن نساء بني إسرائيل بحقها في ممارسة هذه الحرية للخروج لالتزامها بتلك الضوابط الشرعية ،

---

[1]) رواه مسلم ج2 ص 441 رقم 668
[2]) رواه البخاري ج3 ص 420 رقم 849
[3]) انظر فتوى ابن باز : https://binbaz.org.sa/fatwas/7001
[4]) رواه أبو داود ج7 ص 140 رقم 2214 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج7 ص 329
[5]) تفسير ابن كثير ج5 ص 219

فعَنْ عَمْرَةَ بِنْتِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ **لَوْ أَدْرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (مَا أَحْدَثَ النِّسَاءُ لَمَنَعَهُنَّ كَمَا مُنِعَتْ نِسَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قُلْتُ لِعَمْرَةَ أَوَمُنِعْنَ قَالَتْ نَعَمْ)**[1].

وقد اتخذت حجابا دونهم كي يسترها وهي تصلي لله ، ما يعني أنها خرجت محتجبة ، وغير متعطرة حتى لا تلفت الأنظار لها ، يقول النبي ﷺ "لا تمنعوا إماء الله مساجد الله، **وليخرجن تفلات**" وقوله: "وليخرجن تفلات"، أي: تاركات للطيب[2].

ذكر الإمام النووي " أن خروج المرأة للمسجد مشروط بضوابط مأخوذة من الأحاديث، منها ألا تكون مطيّبة ولا متزينة، وألا تلبس ثياباً فاخرة أو خلاخل يُسمع صوتها، وألا تختلط بالرجال"[3] .وعضده بقول الرسول ﷺ (أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ بَخُورًا فَلَا تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ الْآخِرَةَ)[4]

كما نقل الإمام الشوكاني "اتفاق العلماء على النهي عن التطيب عند الخروج للمسجد، مؤكداً أن الأمن من الفتنة هو المقصد الأساسي من تفضيل صلاة المرأة في بيتها واشتراط التفل عند خروجها"[5] .

وقد استنبط الإمام الطبري من سلوك السيدة مريم حينما اتخذت سترًا ومانعًا يحجبها عن أعين أهلها والناس لتنفرد بعبادة ربها وتخشع في صلاتها دون أن يراها الرجال مشروعية هذا الفعل ووجوبه ، فالقاعدة الأصولية . أن "شرع من قبلنا" إذا ورد في كتابنا مقرونًا بالثناء والمدح ولم يرد ما ينسخه، وقد أثنى الله على فعل مريم عليها السلام، مما يدل على مشروعية وفضل احتجاب المرأة عن أنظار الرجال حال عبادتها وصلاتها.

وقد اتفق الفقهاء على أن اتخاذ حائل أو جدار يفصل المرأة عن الرجال أثناء الصلاة هو أمر مطلوب شرعًا للستر والخشوع، وليس شرطًا لوجوب وصحة الصلاة؛ وقد تضافرت الأحاديث النبوية على حث المرأة على التحري لأكثر الأماكن سترًا وخفاءً عن أعين الرجال عند إقامة الصلاة، من ذلك ما يلي : –

- فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «صَلاةُ الْمَرْأَةِ فِي بَيْتِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي حُجْرَتِهَا، وَصَلاتُهَا فِي مَخْدَعِهَا أَفْضَلُ مِنْ صَلاتِهَا فِي بَيْتِهَا»[6]. والمخدع هو الخزانة أو الغرفة الصغيرة داخل البيت، مما يدل على أن كلما زاد احتجابها عن الأنظار كان أجرها أعظم .
- حديث الصلاة في أستر مكان . فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ أَحَبَّ صَلَاةٍ تُصَلِّيهَا الْمَرْأَةُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ تُصَلِّيَ فِي أَشَدِّ مَكَانٍ مِنْ بَيْتِهَا ظُلْمَةً»[7]، وذلك لتمام الستر والانقطاع عن أنظار الناس .
- تخصيص أبواب وصفوف للنساء في المسجد .إذ ثبت في السنن أن النبي ﷺ أمر بتخصيص باب للنساء في مسجده حتى لا يختلطن بالرجال عند الدخول والخروج، كما جعل صفوف النساء في مؤخرة المسجد بعيدة عن

---

[1]) رواه البخاري ج3 ص 378 رقم 822
[2]) رواه ابن حبان في صحيحه ج5 ص 589 رقم 2211 وصححه الألباني : إصلاح المساجد ج1 ص 91 ، ومختصر إرواء الغليل ج1ص103 رقم 515 ورواه أحمد وأبو داود وصححه الألباني صحيح أبي داود ج3 ص 108
[3]) شرح النووي على مسلم ج4 ص 162
[4]) رواه مسلم ج2 ص 448 رقم 675
[5]) نيل الأوطار ج3 ص 160
[6]) رواه أبو داودج2 ص 181 رقم 483 وابن خزيمة في صحيحه ج3 ص 95 رقم 1690 وصححه الألباني صحيح أبي داود ج3ص108
[7]) رواه ابن خزيمة في صحيحه

صفوف الرجال، وقال ﷺ : «خَيْرُ صُفُوفِ الرِّجَالِ أَوَّلُهَا وَشَرُّهَا آخِرُهَا، وَخَيْرُ صُفُوفِ النِّسَاءِ آخِرُهَا وَشَرُّهَا أَوَّلُهَا»[1] ، وذلك لبعد آخر صفوف النساء عن رؤية الرجال.

كما بيّن **الإمام النووي** أن الحكمة من تفضيل آخر صفوف النساء على أولها في المسجد هي البعد عن مخالطة الرجال ورؤيتهم، وتجنب تعلق القلب عند رؤية حركاتهم وسماع أصواتهم[2].

قوله (فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا*قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا)(17-18) والمراد بـ "الروح" ها هنا أمين الوحي جبريل عليه السلام؛ وقد خُلِع عليه هذا الوصف الجليل لأنه رسول الوحي إلى الأنبياء، والوحي هو روح القلوب وحياة الأرواح، كما قال جل شأنه :(وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاء مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) (الشورى 52)

وقد كانت رؤية مريم عليها السلام لجبريل في هيئة بشر سويّ كرامةً ربانيةً ساقها الله إليها؛ جزاءً لصدق إخلاصها، وتبتلها في محراب الطاعة، وانقطاعها عن حطام الدنيا، فأقبلت إليها الدنيا صاغرةً طائعة، وتنزل عليها الرزق من السماء بلا كدٍّ ولا سبب، مصداقاً لقوله تعالى(كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ)(آل عمران 37).

فقد اختيرت مريم لهذا الامتحان لأن الله اصطفاها على نساء العالمين ،قال تعالى (وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (42) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ) (آل عمران 43)، قال ابن كثير (وهي مريم بنت عمران، من سلالة داود، عليه السلام ، وكانت من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل ، وقد ذكر الله تعالى قصة ولادة أمّها لها في "آل عمران"، وأنها نذرتها محررة، أي (تخدم مسجد بيت المقدس، وكانوا يتقربون بذلك) ، (فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا) [آل عمران: 37] ونشأت في بني إسرائيل نشأة عظيمة، فكانت إحدى العابدات الناسكات المشهورات بالعبادة العظيمة والتبتل الدءوب، وكانت في كفالة زكريا نبي بني إسرائيل إذ ذاك وعظيمهم، الذي يرجعون إليه في دينهم .

وهكذا تتجلى ألطاف الله الخفية في طيات الابتلاء؛ فقد امتحن الله مريم بموقفٍ أثار فزعها وروعها حين فاجأها رجل في خلوتها فاستجارت بالرحمن منه، فإذا بهذا الابتلاء الشديد ينقلب عين الرحمة والمنة، إذ أفضى إلى هبةٍ عظيمة، ورزقها الله غلاماً زكياً.

قوله (قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا) (19) هذا المقطع من السورة هو تمهيد لتحقق المعجزة ، وهذه المعجزة هي التي حيرت بني إسرائيل ، ولا تزال يتحير فيها النصارى ، لكن أهل الأسلام يعلمون الحق بوضوح وجلاء ، ذلك أن الله تعالى أراد أن يخلق عيسى بن مريم بلا أب ، فذلك ليس بعصي على الله ، بل هو من دلائل قدرته ، قال ابن كثير (خلق أباهم آدم من غير ذكر ولا أنثى ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق بقية الذرية من

[1]) رواه مسلم ج2 ص 435 رقم 664
2) شرحه لصحيح مسلم ج4 ص 159

ذكر وأنثى ، إلا عيسى فإنه أوجده من أنثى بلا ذكر ، فتمت القسمة الرباعية الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه)[1].

فقد اقتضت حكمة الله البالغة أن يتجلى لها جبريل في صورة إنسان؛ لتستأنس برؤيته وتطيق خطابه دون أن ينخلع قلبها من هول هيئته الملائكية، وليزفّ إليها بشرى الحمل الإلهي المعجز قبل وقوعه، فتكون على بصيرة من أمرها، وتدرك طهارة مسلكه؛ إذ لو وقع الحمل دون سابق إنذار وبشارة، لربما داخلها الشك أو ظنت أن مكروهاً أصابها في غفلة، وحاشاها ذلك، فقد برأها الله بقوله(وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِين) (التحريم 12)

في قوله (قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) (مريم: 20)، نطقت مريمُ عليها السلام بلسان الفطرة البشرية التي تألف السنن المعهودة، وتُرجع الأمور إلى أسبابها الظاهرة؛ إذ لم تتهيأ لها أسباب الإنجاب المعتادة، فنفت أن يكون قد سبق هذا الحمل لقاءٌ برجل، لا في يقظةٍ وإرادة، ولا في غفلةٍ أو إكراه، مستبعدةً كلا السبيلين.

ويشي قولها :(وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا) بواقعٍ اجتماعيٍّ مأزومٍ في ذلك العصر ـــوفي عصورٍ شتىـــ حيث يسهل الانزلاق في حمأة الفاحشة والمجاهرة بها في مجتمعاتٍ غابت عنها شريعة الله وعُطِّلت فيها حدوده. وهنا تجاوزت مريمُ حواجز الخجل المعتاد، فتحدثت بصراحةٍ جليةٍ وألفاظٍ كاشفةٍ لا مواربة فيها[2]؛ لأن المقام مقامُ تبرئةٍ واستفهامٍ عظيمٍ لا يجدي فيه التلميح، بل تقتضي فيه الحقيقةُ البيانَ الصريح. وكما أشار ابن جزيٍّ ، فإن البغيَّ هي "المرأة المجاهرة بالزنا"[3]، وفي ذكرها بعد نفي مسيس البشر "تخصيصٌ بعد تعميم؛ لأن المسيس يكون بنكاحٍ حلالٍ أو بسفاحٍ حرام."[4]

وهذه الصورة القائمة لذلك المجتمع تمنحنا فهمًا أعمق لدوافع اعتزال مريمَ أهلَها وانقطاعها في محراب العبادة؛ فقد كان مجتمعًا يشكو قحطَ الرجال الصالحين القادرين على حمل أمانة الرسالة كما لمس ذلك زكريا عليه السلام، وفي المقابل لم تكن بعض نسائه يجدن غضاضةً في التردي في مستنقع البغاء.

وهكذا أقامت مريمُ حجةً منطقيةً على انتفاء الأسباب المادية، متسائلةً في دهشةٍ عن كيفية وقوع المسبَّب في غياب سببه. وهذا دأب العقل البشري حين يغفل عن حقيقة أن الله سبحانه هو خالق الأسباب ومُجريها، وأنه قادرٌ على أن يخلق النتائج بلا أسبابٍ أصلًا. وإنما أوجد الله الأسباب في هذا الكون لتكون ميدانًا للابتلاء ووسيلةً للتعبد؛ فيأخذ بها العبدُ امتثالًا لأمر ربه، دون أن يركن إليها أو يعتقد أنها الفاعلة بذاتها. فالتوحيد الخالص يقتضي السعي في الأسباب المشروعة مع تجريد القلب من التعلق بها، وتفويض الأمر كله إلى مسبب الأسباب سبحانه؛ وبذلك تكتمل حقيقة العبودية والاستعانة في قلب المؤمن.

---

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 220 ومحاسن التأويل للقاسمي
[2]) في ظلال القرآن ج5 ص 94
[3]) التسهيل لعلوم التنزيل ج1 ص 972
[4]) البحر المحيط ج8 ص 21

في قوله تعالى: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: 21] أي أن الإيجاد من العدم لا يحتاج في قدرة الله إلى أسباب ، وإنما هو مجرد كن فيكون ، وذلك على الله يسير ، فعن أنس جاء رجل إلى رسول الله ﷺ يسأل عن العزل فقال : (لو أن الماء الذي يكون منه الولد أهرقته على صخرة لأخرج الله منها ولدا وليخلقن الله نفسا هو خالقها)[1] ، بهذا تتجلّى طلاقة القدرة الإلهية التي لا تُقيّدها الأسباب ولا تُعجزها السنن؛ فالإيجاد من العدم في ميزان الربوبية لا يفتقر إلى مقدمات، بل هو أمرٌ نافذٌ بين الكاف والنون: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، وذلك على الله يسيرٌ هيّن. وقد أبان النبي ﷺ هذه الحقيقة الراسخة حين سُئل عن العزل، فقال: «لو أنَّ الماءَ الذي يكونُ منه الولدُ أهرقْتَهُ على صخرةٍ؛ لأخرجَ اللهُ منها ولدًا، وليخلُقنَّ اللهُ نفسًا هو خالقُها»[2].

وهنا يبرز تساؤلٌ تأملي: ما دامت القدرة الإلهية نافذةً بلا أسباب، فلِمَ أجرى الله سنة التناسل عبر اقتران الرجل بالمرأة؟

إن الحكمة البالغة في ذلك تتوزع على ركنين عظيمين:-

أولهما: **شهود المعجزة الإلهية في الذات الإنسانية** : أراد الله للإنسان أن يرى آية الخلق ماثلةً في كينونته، وأن يستشعر عجزه أمام مشيئة الله حتى وهو يباشر السبب بنفسه؛ فما الإنسان في عملية الإنجاب إلا أداةٌ مسخَّرة، لا يملك من أمر التكوين شيئًا، ولا يملك ردَّ ما قدّره الله ولو حاول المنع .

ويُجلّي هذا المعنى ما رواه جابر رضي الله عنه: أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ فقال: «إن لي جاريةً هي خادمُنا وسانيتُنا، وأنا أطوف عليها، وأنا أكره أن تحمل»، فقال ﷺ : «اعزِلْ عنها إن شئتَ؛ فإنه **سيأتيها ما قُدِّر لها**». فلبث الرجل ثم أتاه فقال: «إن الجارية قد حبلت»، فقال ﷺ : «قد أخبرتُكَ أنه سيأتيها ما قُدِّر لها»[3]. فجعل الله الاقتران سببًا ظاهرًا ليتفكر المرء في إعجاز الخلق، ويدرك أن تمام الأمر بيد الخالق وحده.

وثانيهما: **الابتلاء وبناء العمران البشري** : فقد أودع الله هذه الفطرة في النفس لتكون محرّكًا للسعي وميدانًا للابتلاء؛ فلولا هذه الرغبة الفطرية لما تحمّل الإنسان مشاقَّ الحياة وأعباءها. فمن أجل إشباعها في إطارها المشروع، يجدُّ المرء في طلب العلم، ويكدح في العمل، ويجمع المال ويدّخره؛ ليشيّد بيت الزوجية، ويؤدي المهر، وينفق على أهله. فإذا ما نال بغيته، أعقبتها مسؤولياتٌ جسام من رعاية الأبناء، والإنفاق عليهم، وتهذيب نفوسهم وتقويم سلوكهم، حتى يشتد عود الابن ويغدو بدوره ربانًا لأسرةٍ جديدة؛ وبهذا تتصل حلقات الحياة، ويستمر عمران الأرض على سنة الابتلاء والعمل.

فقوله (وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا) في بيان هذه الآية الكريمة، يوضح الحافظ ابن كثير أن معنى جعله "آية" هو: «أي ولنجعل خلقه –والحالة هذه– دليلاً على كمال قدرتنا على أنواع الخلق؛ فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى».

---

[1]) رواه مالك في الموطأ ج2 ص 467 رقم 547

2) رواه مالك في الموطأ ج2 ص 467 رقم 547 ـ ورواه أحمد ، وابن أبي عاصم ، والضياء عن ثمامة بن عبد الله بن أنس عن جده) انظر تخريج السيوطي في جامع الأحاديث ج18 ص 87 وحسنه الألباني : السلسلة الصحيحة ج3 ص 321 رقم 1333

[3]) رواه مسلم ج7ص315 رقم 2606

وأما كونه "رحمة" من الله بعباده، فيفسره ابن كثير بقوله: «بأن يدعوهم إلى الله في صغره وكبره، في طفوليته وكهولته؛ بأن يفردوا الله بالعبادة وحده لا شريك له، وينزهوه عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، والشركاء والنظراء، والأضداد والأنداد).[1]

وعند التأمل في هذا النص القرآني البديع، نجد أنه ينطوي –والله أعلم– على ثلاث دلالات جوهرية مترابطة:

أولاً: **البرهان العملي على كمال القدرة الإلهية**:لم تأتِ الآية لتقرر قدرة الله بصورة نظرية مجردة، بل قدمتها في برهان عملي تطبيقي مشهود كما أشار ابن كثير. فالله الذي سنّ قانون الزوجية في الكون بقوله :﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾] الذاريات: 49]، هو القادر على خرق هذا القانون متى شاء، ليؤكد أنه سبحانه لا تحده الأسباب، بل هو مسببها، مصداقاً لقوله :﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾] يس: 82.[

ثانياً: **إبطال الغلو والرهبانية المبتدعة**: تحمل هذه المعجزة إبطالاً صريحاً لبدعة الرهبانية والانقطاع عن سنن الحياة التي ابتدعها بعض أهل الكتاب من أتباع التوراة والإنجيل، كما أسلفنا في مقدمة هذا المبحث. وقد ذمّ الله هذا الغلو في كتابه فقال :﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾] الحديد: 27]؛ فكون عيسى عليه السلام "رحمة" يدعو إلى التوحيد الخالص والاعتدال، ينقض مسالك التشدد التي انحرف إليها أتباعه من بعده.

ثالثاً: **إقامة الحجة الدامغة على قتلة الأنبياء**: إن خلق عيسى عليه السلام من غير أب، ثم استنطاقه في المهد بقوله :﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾] مريم: 30]، لم يكن مجرد حدث خارق للعادة، بل كان حجة بالغة لإلجام المعاندين من بني إسرائيل الذين اعتادوا تكذيب الرسل وقتلهم، لعلهم يرتدعون عن غيهم. غير أن جحودهم أبى إلا أن يكرر السيرة الآثمة نفسها بمحاولة قتله وصلبه، فأنقذه الله منهم، كما قال تعالى :﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ ... بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾] النساء: 157-158.[

قوله (فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا) (22) دليل على أن مريم عليها السلام مرت بفترة حمل طبيعية ، وقد ظهر علي مريم علامات الحمل ، فابتعدت به إلى مكان بعيد عن أهلها حتى لا يلاحظوا حملها ، وهو الأمر الذي ينفي عن عيسى صفة الألوهية ، إذ كيف يكون إلها وقد مر بمراحل وأطوار نمو الجنين في بطن أمه؟

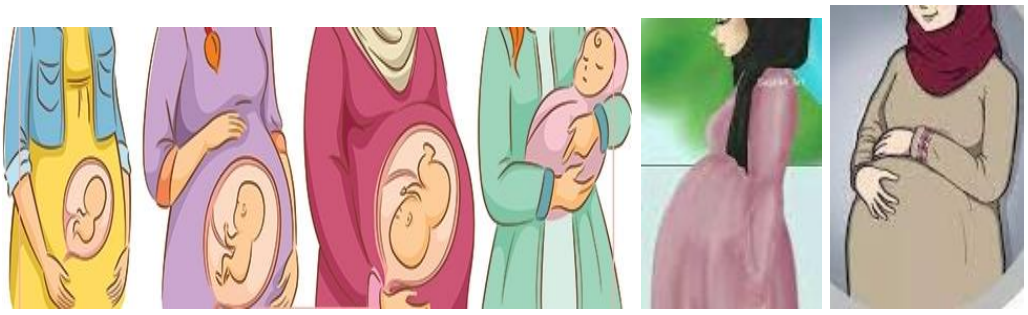

وقد خجلت مريم من شكل بطنها ، فابتعدت به إلى مكان بعيد حتى لا يراها أحد فيرمها بالفحشاء بغير حق .

قوله (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا) (23) رحمها الله تعالى بأن جاءها مخاض الولادة سريعا دون انتظار لمدة طويلة ،لكنها خافت أن يقذفها قومها بالفاحشة وقد أوشكت على

[1]) البداية والنهاية ج 2 ص 77

الولادة ، فتمنت الموت قبل أن ينالها ما تخاف منه ، لأن سمعة المرأة وشرفها أثمن ما تملك بعد الإيمان بالله تعالى ، بل إن ذلك لدليل تصديقها وإيمانها بكتابه .

والسنة في شرعنا تنهى عن تمني الموت على كل حال ، ولذلك قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ الْمَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ بِهِ فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ **فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتْ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتْ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**)[1]، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَا يَتَمَنَّى أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ وَلَا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُ** ، إِنَّهُ إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ انْقَطَعَ عَمَلُهُ وَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ الْمُؤْمِنَ عُمْرُهُ إِلَّا خَيْرًا)[2]

قال الحافظ (هذا يدل على أن **النهى عن تمنى الموت مقيد بما إذا لم يكن على هذه الصيغة**، لأن في التمنى المطلق نوع اعتراض ومراغمة للقدر المختوم، وفي هذه الصورة المأمور بها نوع تفويض وتسليم للقضاء، وقوله: فإن كان لا بد إلخ ، فيه ما يصرف عن حقيقته من الوجوب والاستحباب، ويدل على أنه لمطلق الإذن لأن الأمر بعد الحظر لا يبقى على حقيقته)[3].

وقد تساءل العلماء عن كيفية الجمع بين فعل مريم عليها السلام وبين الأحاديث التي تنهى عن ذلك ، فأجابوا عن ذلك بعدة أوجه :-

- الفرق بين ضرر الدنيا وفتنة الدين .بيّن العلماء في الموسوعة الفقهية بالدرر السنية أن النهي يختص بمن يتمنى الموت لضيق دنيوي أو مرض أو فقر، أما إذا خاف المسلم على دينه من الفتنة فيجوز له تمني الموت[4].
- تمني صفة الوفاة لا الموت المطلق .أوضح الشيخ ابن عثيمين أن مريم لم تطلب الموت في تلك اللحظة تحديدًا، بل تمنت لو كانت قد ماتت قبل حدوث هذه الفتنة ولو عاشت قبلها ألف سنة، فالمقصود هو السلامة من الفتنة عند الموت.

قوله (فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا) (24) إنَّ نداءَ عيسى عليه السلام لأمِّه من تحتها بألَّا تحزن يُعدُّ توصيفًا دقيقًا للحالة النفسية التي تمرُّ بها المرأةُ بعد الوضع (النُّفَساء)؛ إذ تعاني من إجهاد الولادة الشديد، فيصيبها الحزن والوهن نتيجة استنفاد طاقتها الجسدية بعد وضع وليدها.

قال جمهور المفسرين (السريّ : النهر الصغير)[5]، كناية عن الولد الذي تلده فينزل من تحتها، قال ابن عباس والحسن هو (عيسى)[6].

ويدلُّ السياق القرآني على أنَّ عيسى عليه السلام كان سببًا في تسلية أمِّه وتخفيف حزنها، وهذا أمرٌ يوافق الفطرة الإنسانية؛ فلو تأمَّلت كلُّ أمٍّ في وليدها وتفرَّست في ملامحه لترى معجزة الله تعالى في خلقه وهو يخرج منها كائنًا حيًّا، لكان ذلك من أعظم أسباب التسرية عنها، ولَما وجدت سبيلًا لليأس أو لما يُعرف باكتئاب ما بعد الولادة.

---

[1]) رواه البخاري ج19 ص 432 رقم 5874
[2]) رواه مسلم ج13 ص 181 رقم 4843
[3]) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج5 ص 288 رقم 1614
[4]) الموسوعة الفقهية : الدرر السنية :
https://dorar.net/feqhia/1893/المطلب-الثالث-حكم-الأنين-وتمني-الموت
[5]) فتح القدير للشوكاني ج4 ص 449
[6]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 256

وهكذا تكون آلام الحمل والوضع ابتلاءً من الله تعالى لكل امرأة؛ فإن هي احتسبت الأجر عند الله صبرها ورضيها، سُرِّيَ عنها وفرحت بكونها سببًا في خروج نَفْسٍ جديدةٍ توحِّد الله تعالى وتشكره، فجعل الله تعالى عيسى بن مريم سببا في التسرية عنها ، وفرحها بعد الغم.

قوله (وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا) (25) حضها على الحركة وعدم الاستلام لألم الولادة ، وقد ثبت علميا أن **الحركة بعد الولادة سبب لتحسن نفسية المرأة ويساعد على سرعة الاستشفاء** ، إذ كان من الممكن أن يتساقط هذا الرطب بدون جهد منها ، ولكن الله أمرها بأن تلتمس الأسباب لتحصل على الرزق بعد شيء من الحركة والعمل ، وتلك هي سنة الله تعالى ، فلو جاء الرزق بلا سعي وعمل لما كانت الدنيا محلا للابتلاء والاختبار ، لكنه يأتي بغير حساب إذا ما تحققت أركان التقوى وحسب ، قال بن العربي (**وَلَوْ شَاءَ أَحْنَى الْجِذْعَ مِنْ غَيْرِ هَزِّهَا إلَيْهَا وَلَكِنْ كُلُّ شَيْءٍ لَهُ سَبَبٌ**)[1].



وهكذا يتساقط عليها الرطب من التمر بمجرد هزها لجذع النخلة ، وأي قوة تملكها مريم وهي نفساء لتهز جزع النخلة ، أتدرون ما هو جزع النخلة ؟ قال ابن عثيمين (انظر لهذه الكرامة المرأة مرأة نفساء والمرأة ضعيفة تؤمر بأن تهز بجذع النخلة ، والهز بالجذع لا يحرك النخلة لكنها كرامة لها تحركت النخلة ثم لما تحركت تساقط الرطب رطبا جنيا لم يتأثر بسقوطه على الأرض مع أن الغالب أن الرطب إذا سقط من أعلى فإنه يفسد يتمزق بسقوطه على الأرض لكن هذا الرطب الذي تساقط على مريم تساقط عليها **رطبا جنيا لم يتأثر بالأرض ولم يتمزق بها**)[2].

قوله (فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا) التفات إلى العناية البدنية بعد العناية النفسية ، ليكتمل الاستشفاء من الولادة

كما روعي الالتفات إلى العناية النفسية مرة أخرى بعد الاستشفاء البدني ، بقوله "وقري عيناً" لأن قرّة العين تلزم قوة القلب والتسلي من الهموم والأحزان)[3]، فالمعالجة النفسية تسبق وتتخلل وتلحق أي عمل

والمقصود بالعناية النفسية أن يظل القلب معلقاً بالله، عاقداً عليه الأمل، مستشرفاً بشرياته التي تتنزل عليه من كل جانب. وقد قيل في تفسيرها: أي (طيبي نفساً وافرحي برؤية الولد المبارك الموهوب لكِ)[4]. فالعناية الإلهية لا تفارق المؤمن في أحلك ظروفه، وهو ما يوجب عليه تمام اليقين وحسن التوكل.

قوله (فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا)(27) إرشاد إلهي لمريم عليها السلام في هذا الموطن العصيب بالتزام الصمت وحسب ، وهي أمامها مسالك شتى للدفاع عن براءتها؛ فكان بوسعها أن تسرد على قومها حقيقة ما جرى دون زيادة أو نقصان، أو أن تلتمس مخرجاً ظاهرياً فتزعم أنها عثرت على هذا الوليد لقيطاً في قارعة الطريق، أو غير ذلك من الذرائع التي يمليها منطق البشر في مواقف الاتهام.

---

[1]) أحكام القرآن لابن العربي ج5 ص 345
[2] فتاوى نور على الدرب لابن عثيمين ج34 ص 6: مؤسسة الشيخ بن عثيمين الخيرية
[3]) تفسير النيسابوري ج5 ص 230
[4]) الشوكاني : فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ج3 ص 470

غير أن التدبير الإلهي اصطفى لها سبيلاً مغايراً يعلو على مألوف الناس؛ إذ أمرها بالاعتصام بالصمت والإمساك عن الكلام، وهو مسلكٌ يبدو في ظاهره مثيراً للريبة ومؤججاً للظنون، **فالقرائن الظاهرة تشي بأن الغلام ولدها،** وقومها يعلمون يقيناً أنها العذراء البتول المنقطعة للعبادة في المحراب، ولم يمسسها بشر، فمن أين لها هذا الغلام؟ كما أن سردها لحقيقة المعجزة بلسانها لن يجد آذاناً مصغية ولا قلوباً مصدقة؛ فكان هذا الموقف قمة الابتلاء والتمحيص.

ومن هنا تتجلى حكمة الأمر الإلهي بالإمساك عن الكلام؛ إذ يذكر المفسرون في معنى" الصوم "هنا أن الصيام في أصل اللغة هو الإمساك، وقد كان من شرائع من قبلنا أن يتعبدوا بالصمت والامتناع عن الحديث كما يمتنعون عن الطعام والشراب. قال ابن عباس رضي الله عنهما : "صوماً" : أي "صمتاً" ، وأوضح الطبري وابن كثير أن نذر الصمت كان قربةً معروفة في شريعتهم، فإذا رأى الناس أحدهم صامتاً عن الكلام علموا أنه في عبادة فلم يتعرضوا له بالأذى أو الجدال.

ويحمل هذا التوجيه الرباني دلالةً تربويةً بالغة الأهمية؛ وهي أن المؤمن إذا وقع في موقف تشتد فيه التهم، وتتكالب عليه القرائن الظاهرة، ولم يجد في جداله العقلي حجةً تقنع الخصوم، فإن **الصمت حكيم والتفويض إلى الله هما أبلغ رد،** لأن الكلام في غير أوانه لا يزيد الشبهة إلا اشتعالاً، ولا يورث صاحبه إلا استهزاء المكذبين. وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ (وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ) [1] .

لقد كان صمت مريم عليها السلام توطئةً ربانيةً مهيبة لتنطق الحجة البالغة في أوانها المقدر، وليتولى الله الدفاع عن أوليائه بمعجزةٍ تخرس الألسنة؛ قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ)(38) ، فامتثلت أمر ربها، ولاذت بالصمت المطبق، لتفسح المجال لقدرة الله أن تتكلم على لسان الرضيع في المهد، فتكون الحجة أدامغ، والبرهان أسطع.

قوله (فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا)(28) هنا لما طال صمتها فُتنت به ، إذ رماها أهلها بفرية (الزنا) وهي بريئة منها ، فزاد بلاؤها ،وظلت ملتزمة الصمت ، وهنا يأتي دور الثبات على الإيمان ، فيثبتها الله تعالى ولا تنطق بكلمة كما أمرها .

قوله (يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا)(28) فكان صمتها سببا لأن يدافعوا عنها بتذكر حسناتها وعباداتها ، فقارنوها بعبادة (هارون)، فهي أخته في الدين والأخلاق .

فعن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران قال فقالوا أرأيت ما تقرءون يا أخت هارون ، وموسى قبل عيسى بكذا وكذا ، قال فرجعت فذكرت لرسول الله ﷺ فقال ألا أخبرتهم أنهم كانوا يُسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم)[2].

وذكروها بأصلها الشريف من حيث الأب والأم ، فكلاهما معروف بالخير ، وهكذا يتحدث ماضي المرء ليدافعه عنه في مثل تلك المواقف ، الأمر الذي أعطاها فسحة من الوقت ، ومهَّد لها لتبدأ أول خطوة في الدفاع عن نفسها (بالإشارة إلى وليدها) .

---

[1]) رواه البخاري ج18 ص 437 رقم 5559
[2]) رواه أحمد في مسنده ج4 ص 252 رقم 18226 ، تعليق شعيب : إسناده صحيح على شرط مسلم

فأحيانا يكون الصمت أداة استراتيجية في الإقناع وأداة نفسية قوية تُحفّز التفكير العميق، وتنقل الثقة، وتدفع الطرف الآخر لملء الفراغ بالمعلومات أو التنازلات .فعلى عكس الاعتقاد الشائع بأن الإقناع يعتمد على كثرة الكلام، يمنح الصمت المدروس مساحة ذهنية تُعزّز من ثقل الكلمات التي تسبقه أو تليه.

إذ يعكس الصمت الهادئ عدم الحاجة إلى تبرير الموقف أو الاستعجال في الدفاع عن الفكرة. يفسر المستمع هذا الهدوء على أنه دليل على القوة واليقين، مما يرفع من مصداقية المتحدث ، لكن يجب تجنب الأثر العكسي للصمت الطويل من خلال لغة الجسد ، لأن التجاهل التام أو الصمت العدائي يولّد النفور ويُعد أسلوباً سلبياً يضر بالعلاقات. بل يجب أن يكون الصمت مصحوباً بلغة جسد منفتحة وتواصل بصري مريح.

قوله (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا*قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) (29-30) ؛ نجد أن مريم عليها السلام لما لمست من قومها حيادًا ورغبةً صادقة في تبين الحقيقة، أشارت إلى رضيعها باعتباره دليل براءتها وحجتها القاطعة ردًا على تساؤلهم. فتعجب القوم من إشارتها، وبادروا بالسؤال مستفهمين بإنصاف وتجرد بعيدًا عن السخرية أو التهكم، حتى في أمر يبدو خارقًا للمألوف، فقالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

عندئذٍ تجلّت المعجزة الإلهية؛ إذ أنطق الله الرضيع في مهده ليتولى الدفاع عن أمه وتبرئتها بدلًا عنها. وفي هذا المشهد درس عظيم بأن عناية الله لا تتخلى عن المؤمن في أشد أزماته، ما دام واثقًا بربه ومعتصمًا به مهما اشتد الحصار، وكثرت الأقاويل، وانقطعت به الأسباب الأرضية فلم يبقَ له إلا رب الأرباب.

لقد جاءت هذه المعجزة برهانًا ساطعًا على طلاقة القدرة الإلهية في الخلق والإيجاد من العدم، وحجةً تبطل الغلو والتشدد في العبادة المفضي إلى الرهبنة، كما كانت شاهدًا على بني إسرائيل الذين أسرفوا في قتل الأنبياء. ويبقى التساؤل قائمًا عما ستؤول إليه الأحداث بعد هذه المعجزة الباهرة؛ فهل سيمضي القوم في غيّهم ويحاولون قتل المسيح عليه السلام كما فعلوا مع من سبقه من الأنبياء، أم أنهم سيتتبعون أمره ويرقبون شأنه؟

قال تعالى (قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا) (30) (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا) (31) (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا) (32) (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) (33)

هنا تحدث عيسى عن نفسه ، ودار حديثه تعريفا عن نفسه بعدة أمور كالتالي :-

أولا : قوله (إني عبد الله) هذا إقرار منه بأنه عبد الله وليس إلها كما زعم النصارى بعد ذلك ، فلو أن بني إسرائيل ضلوا بقتل الأنبياء ، فإن النصارى ضلوا بتأليه المسيح عيسى بن مريم ، وقد صدر هذا القول ليس لنفي هذه الشبهة فهي شبهة لاحقة لقوله ، وإنما لأن الرسل جميعا جاءوا بتلك الرسالة ، ولأجل إعلان كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ، فكل نبي قال لقومه (اعبدوا الله) ، وإنما جاءت دعوة المسيح لقومه (إني عبد الله) من باب الاحتراز وإقامة الحجة عليهم حتى لا يفتنوا به وقد نطق في المهد .

ثانيا : قوله (آتاني الكتاب) لينتبهوا إلى أن الله آتاه شريعة جديدة مصدقة للتوراة في الأصول ، وتختلف عنها في الفروع وبعض الأحكام العملية نظرا تبدل الزمان والأشخاص والهيئات ، لاسيما وقد طال التوراة كثير من التحريف والتأويل بحسب الأهواء ، يقول النبي ﷺ (إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ)[1].

ثالثا : قوله (وجعلني نبيا) تأكيد على أنه مرسل من ربه لقومه ، كي يتبعوه منذ اللحظة التي كلمهم فيها وهو في المهد ، قال الحسن (أنه كان في حال كلامه لهم في المهد نبياً كامل العقل ولذلك كانت له هذه المعجزة) [2]، وكيف لا يكون نبيا بعد أن تكلم في المهد ، فقد لقنه الله ما يتكلم به ، وقد صدقه الناس ،ولم يبق إلا أن يتبعوه ، فكان ذلك حسرة شديدة لنبي إسرائيل الذين قتلوا الأنبياء من قبل ، فقد عجزوا اليوم عن تكذيب المسيح بن مريم وعن قتله ، وقد صدقه الناس وهو في المهد .

رابعا : قوله (وجعلني مباركا أين ما كنت) يتجلى أهمية وجود المسلم المثمر ، وأثره الإيجابي على الوجود كله ، فهو يحمل الخير للناس ، وتعم الأرض بركة بوجوده ، فالبركة في أصلها اللغوي والشرعي تعني ثبوت الخير، ونماءه، ودوامه، وعموم نفعه؛ وقد تضافرت أقوال السلف وأئمة التفسير في الكشف عن كنوز هذه الآية الكريمة :-

فعن مجاهد قال (معلما للخير)[3]، روايةٍ أخرى عن مجاهد قال: «نفّاعًا للناس حيثما توجّه»؛ فلا يقتصر خيره على نفسه، بل يفيض علمًا وهدايةً على كل من حوله.

وعن ابن عباس (معلما مؤدبا)[4]، فالمسلم تحل معه البركة أينما ذهب ، **لأنه لابد وأن يترك المكان أفضل مما كان** ، ولذلك أثر عن جبريل عليه السلام أنه كان ينبت بكل خطوة يخطوها الزرع ، وهكذا يكون المسلم مصلحا ولا يكتفي بصلاح نفسه ، بل يسعي لإصلاح كل شيء من حوله ، من هنا تولد فقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ويعضد هذا المعنى تفسير التستري لمعنى البركة بقوله (يعني آمر بالمعروف ، وأنهى عن المنكر ، وأرشد الضال ، وأنصر المظلوم ، وأغيث الملهوف)[5]، وهو ما يوافق ما نقله الإمام الطبري عن وهيب بن الورد من أن الفقهاء اجتمعوا على أن بركة العبد تكمن في قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما حلّ.

ولشرف هذه المنزلة وعظيم أثرها في إصلاح الكون، استحق معلم الخير أن يحتفي به الوجود كله؛ مصداقًا لقول رسول الله ﷺ (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ وَأَهْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرَضِينَ حَتَّى النَّمْلَةَ فِي جُحْرِهَا وَحَتَّى الْحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلَى مُعَلِّمِ النَّاسِ الْخَيْرَ)[6].

خامساً: قوله تعالى: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ﴾ تلك العبادةُ العُظمى، والصلةُ الوُثقى التي تشدُّ أزرَ العبد بخالقه، وترتقي بروحه في معارج القُرب واليقين؛ إذ لا خير في دينٍ خلا من ركوعٍ يُذلُّ به الجبين للواحد القهّار، وسجودٍ يعلن به العبدُ غايةَ الخضوع والافتقار. فبالصلاة يناجي العبدُ مولاه، ويلهج بتمجيده والثناء عليه وشكره، ويبثُّ بين يديه

---

[1]) رواه البخاري ج11 ص 294 رقم 3216
[2]) النكت والعيون ج3 ص 18
[3]) التبويت الموضوعي للأحاديث ج1 ص 15631 ، ورواه مالك في الموطأ عن بن عيينة ج1 ص 2
[4]) مستخرج الطوسي ج1 ص 52
[5]) تفسير التستري ج1 ص 311
[6]) رواه الترمذي ج9 ص 299 رقم 2609 صححه الألباني في صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 214

شكواه، ويُظهر له فاقتَه وعجزَه وحاجتَه. ولولا هذه الشعيرةُ الجليلة لافتقد الإنسانُ أُنسَ المعية الإلهية، واستشعارَ الرعاية الربانية والحفظ الإلهي.

وقد أشار العلماء إلى أن عطف الصلاة على المباركة في الآية يدلُّ على أن بركة العبد في مجتمعه لا تكتمل إلا بصلاح صلته بربه؛ يقول الإمام الرازي في تفسيره: "إنما خُصَّت الصلاة والزكاة بالذكر؛ لأن الصلاة تعظيمٌ لأمر الله، والزكاة شفقةٌ على خلق الله، وهما جماعُ السعادة والكمال". كما يذكر ابن عاشور أن التعبير بـ (أوصاني) يشير إلى عهدٍ إلهيٍّ عظيم أُلقي على عاتقه منذ نعومة أظفاره؛ ليظلَّ محرابُ الصلاة ملاذَه الآمن الذي يستروح فيه من عناء الدعوة ومكابدة الحياة.

وهكذا كان نبي الله عيسى –عليه السلام– يجد في الصلاة سَكَنَ نفسه، وبهجةَ روحه، وتحقيقَ مقام العبودية الخالصة لله. وهو ذاتُ الشعور الفيّاض الذي كان يغمر قلبَ نبينا محمد ﷺ؛ فعن سالم بن أبي الجعد قال: قال رجلٌ من خزاعة: ليتني صليتُ فاسترحت، فكأنهم عابوا عليه ذلك، فقال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يَا بِلَالُ أَقِمْ الصَّلَاةَ، أَرِحْنَا بِهَا»[1]. وقد قال أهل العلم في شرح هذا الحديث: "كان اشتغالُه ﷺ بالصلاة راحةً له؛ فإنه كان يَعُدُّ غيرَها من الأعمال الدنيوية تعباً، فكان يستريح بالصلاة لما فيها من لذةِ مناجاة الله تعالى والأُنس بذكره"[2].

سادساً: قوله تعالى: ﴿وَالزَّكَاةِ﴾ إذا كانت الصلاةُ طُهرةً للروح ومعراجاً لتزكية النفس، فإن الزكاةَ طُهرةٌ للبدن ونماءٌ للمال وتطهيرٌ له من أدران الشُّحِ والأثرة؛ مصداقاً لقول النبي ﷺ: «دَاوُوا مَرْضَاكُمْ بِالصَّدَقَةِ»[3].

وقد توقَّف المفسرون أمام إيتاء عيسى –عليه السلام– للزكاة وهو في المهد صبيّاً لا مال له، فاستنبطوا من ذلك لطائف بديعة؛ يقول الإمام القرطبي وابن كثير: "المقصود بالزكاة هنا أحد أمرين: إما أنها تكليفٌ مؤجَّلٌ متى ملك المال وبلغ سنَّ التكليف، وإما أن الزكاة أُريد بها تطهيرُ النفس وتزكيتُها من الذنوب والأخلاق الرذيلة، والقيامُ بحقوق العباد". ويضيف الإمام السعدي معنىً جامعاً بقوله: "أوصاني بالزكاة، وهي الإحسان إلى الخلق بالمال، أو بالعلم، أو بالنفع المتعدي".

وبذلك يتسع مفهوم الزكاة في حق عيسى –عليه السلام– ليشمل معناها المادي والمعنوي معاً؛ فهي الإعانةُ الشاملة لكل محتاج، واليدُ الحانية التي تمتدُّ بالخير للفقراء والمساكين وذوي الحاجات، كما تمتدُّ بالهداية والنصح للضالين والحيارى غير المهتدين. وهذا ما يؤكده الهدي النبوي الشريف في توسيع دائرة البذل والعطاء؛ إذ يقول رسول الله ﷺ «أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ»[4]، ويقول ﷺ في إرساء قيمة العطاء المعنوي: «وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ»[5]..

قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ (32) في هذا الملمح القرآني البليغ إشارة جليلة إلى عظم منزلة بر الوالدين، وضرورة غرس هذا الخلق الرفيع في نفوس النشء منذ نعومة أظفارهم؛ إذ يُعدّ البر أولى مدارك حسن الخلق، وأصدق ترجمانٍ لصلاح العلاقة بين العبد وربه، وقد قرنه الله سبحانه بعبادته في غير موضع من كتابه العزيز. ومن لم يحسن الوفاء لأقرب

---

[1]) رواه أبو داود ج13 ص 165 رقم 4333 وصححه الألباني : الجامع الصغير ج1 ص 1386 رقم 13851
[2]) ابن الأثير : النهاية في غريب الأثر ج2 ص 658
[3]) رواه أبو داود في المراسيل ورواه الطبراني والبيهقي وغيرهما عن جماعة من الصحابة مرفوعا متصلا والمرسل أشبه عن أبي أمامة ، وقال الألباني حسن لغيره : صحيح الترغيب والترهيب ج1 ص 182 رقم 744
[4]) رواه مسلم ج5 ص 177 رقم 1674
[5]) رواه البخاري ج18 ص 444 حديث الباب

الناس إليه وأعظمهم فضلًا عليه، فلن يُرجى منه صلاح في الشأن العام؛ لذا كان بر الوالدين توطئةً ضرورية لتزكية النفس، وتأهيلًا للمرء كي يتصدر لخدمة الناس، ويتدرج في سياستهم بالعدل والرحمة لحملهم على شريعة الله وهدايته.

وقد جاء التعبير القرآني على لسان عيسى عليه السلام بصيغة الإفراد في قوله: ﴿بِوَالِدَتِي﴾، بخلاف ما ورد في شأن يحيى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: 14]؛ وذلك لتقرير حقيقةٍ عقديةٍ وتاريخيةٍ قاطعة، وهي أنه عليه السلام خُلق بقدرة الله من أمٍّ طاهرةٍ بتولٍ دون أب، وأن الصدّيقة مريم عليها السلام قد حملته وولدته من رحمها، في دحضٍ صريحٍ لشبهات الغالين والمبطلين.

كما أشار أهل العلم والتفسير إلى لطائف بلاغية وعقدية بديعة في هذه الآية الكريمة، تزيد المعنى رسوخًا وعمقًا:

- **الإعجاز اللغوي والدلالي في لفظ (بَرًّا)**: (لفت المفسرون كالزمخشري وابن عاشور إلى أن القرآن لم يقل (بارًّا بوالدتي) بصيغة اسم الفاعل، بل عدل إلى الصفة المشبهة (بَرًّا)؛ للمبالغة في الوصف وتأكيد الثبات والدوام، فكأنه عليه السلام قد تجسد فيه البر حتى صار سجيةً ملازمةً له في كل أحواله، لا مجرد فعلٍ عارض.
- **الرد على شبهة الألوهية والبنوّة**: نبّه الإمام القرطبي وابن كثير إلى أن إقرار عيسى عليه السلام بالعبودية لله أولًا في قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾، ثم إردافه ببره بوالدته، فيه أبلغ ردٍّ على النصارى الذين ادعوا له الألوهية أو جعلوا أمه إلهة؛ إذ الإله المعبود لا يكون عبدًا مأمورًا، ولا ولدًا محتاجًا إلى أمٍّ ترضعه وترعاه، ولا مكلّفًا ببرها والإحسان إليها.
- **سرّ التقديم والتأخير في السياق القصصي**: قدّم القرآن الكريم في سورة مريم نموذجي يحيى وعيسى عليهما السلام في كمال البر بوالديهما، قبل أن يسوق قصة الخليل إبراهيم عليه السلام وموقفه من أبيه آزر، وما آل إليه أمره من اعتزال أبيه وقومه؛ وذلك ليرسم للمؤمنين منهجًا متكاملًا يفرق بدقة بين مقامين: مقام البر والإحسان والصحبة بالمعروف مع الوالدين الصالحين، ومقام المفارقة والاعتزال الحسن حين يشتد أذى الوالدين في الدين، ويصبح الهجر والاعتزال سبيلًا وحيدًا للنجاة بالعقيدة وصيانة التوحيد، مع بقاء أدب الخطاب ولين الجانب كما فعل الخليل عليه السلام مع أبيه.

ثامنا : قوله (ولم يجعلني جبارا شقيا) الجبار غير منضبط السلوك مع الناس ، والشقي هو من جعل الدنيا همه ، وخلافهما الرحيم مع الناس والبار بهم وأول الناس ببره الأقربين ، والزاهد في الدنيا الذي يضع الآخرة نصب عينيه ،

إذ ينفي نبي الله عيسى عليه السلام عن نفسه هاتين الصفتين الذميمتين؛ الجبروت والشقاء، ليرسم بذلك معالم الكمال الإنساني والسمو الأخلاقي في أبهى صوره.

فنفي الجبروت يعني حسن الخلق: فالجبار هو المتكبر الطاغي الذي يبطش بالناس، ويتصرف معهم دون وازع من خلق أو رحمة، فيشبه في اندفاعه سلوك العجماء التي لا تزن تصرفاتها بميزان العقل. وقد بيّن الإمام الطبري أن الجبار هو المستكبر عن طاعة الله وطاعة والدته، المتعظم على عباد الله. وعلى النقيض من ذلك، فإن من عصمه الله من الجبروت يكون رقيق الجانب، محترزاً في معاملته للخلق، رحيماً بهم، واصلاً لرحمه. وقد ربط النبي ﷺ بين صلة الرحم وبركة العمر والرزق بقوله: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**»[1].

معنى الشقاء في أقوال المفسرين: وقد أشار العلماء إلى أن اقتران "الشقي" بـ "الجبار" يحمل دلالات عميقة؛ فذكر ابن كثير أن الشقي هو العاق لوالديه، لأن العقوق يجلب الشقاء في الدنيا والآخرة. كما أوضح القرطبي والزمخشري أن الجبار شقي لا محالة؛ لأن كبره وبطشه يوردانه موارد الهلاك وسخط الله، فكل جبار شقي، وكل متواضع بارّ سعيد.

[1]) رواه البخاري ج7 ص 228 رقم 1925

والرحمة سر السعادة ويتحقق ذلك بالزهد في الدنيا : فنفي الشقاوة هنا يثبت نقيضها، وهو نيل السعادة الحقيقية التي تنبع من الرحمة الفطرية التي جبل الله عليها نبيه. وتتجلى هذه السعادة في انصراف القلب عن هموم الدنيا وزخارفها؛ فالشقي حقاً هو من استغرقته الدنيا وأسرته مطالبها. وفي ذلك يقول النبي ﷺ: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ**»[1]. وهذا برهان ساطع على تجرد عيسى عليه السلام من التعلق بالدنيا البتة؛ إذ إن أدنى التفات إليها يورث القلب كدراً وشقاءً، ومن ذاق شيئاً من فتنتها ناله نصيب وافر من العناء.

تاسعا : قوله (وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا) في ختام هذه المناجاة النورانية التي أنطق الله بها المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام في مهده، يُسدل الستار بإعلان الأمان الإلهي الشامل الذي يكتنفه في أشدّ مواطن الوحشة والرهبة على الإنسان: ساعةَ الولادة ومفارقة المألوف، وساعةَ الموت ومعاينة الآخرة، وساعةَ البعث والقيام لرب العالمين.

لطيفة التغاير بين صيغة الغائب وصيغة المتكلم:

وقد لفت أهل العلم والبلاغة النظر إلى سرٍّ بديع في هذا الموضع؛ إذ وردت هذه الآية في حق يحيى عليه السلام بصيغة الغائب: "وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا"، بينما جاءت هنا على لسان عيسى عليه السلام بصيغة المتكلم: "وَالسَّلَامُ عَلَيَّ...". ولهذا العدول مقاصد جليلة، منها:

إثبات البشرية ونفي الألوهية: أراد عيسى عليه السلام بشهادته الصريحة على نفسه أن يقطع دابر الغلوّ في شأنه؛ فهو عبدٌ مربوب تجري عليه سنن الكون من ولادةٍ وموتٍ وبعثٍ كسائر البشر، ومن كانت هذه حاله فأنّى تُنسب إليه الألوهية أو يُتخذ إلهًا من دون الله؟!

تبرئة الساحة في مهد الصبا: ولما كان يحيى عليه السلام لم يُرمَ في نسبه بشيء، تولّى الله الثناء عليه بالسلام؛ أما عيسى عليه السلام فلمّا وُلد من غير أب، واحتاج المقام إلى إظهار براءته وبراءة أمه الصدّيقة، أنطقه الله ليُعلن عن نفسه أنه محلُّ سلامِ الله وأمانه، وليكون نطقُه في المهد أعظمَ برهانٍ على طهارة مولده.

الأمان الإلهي في المواطن الثلاثة: فقد أشار المفسرون إلى أن "السلام" هنا يتضمن السلامة من كل سوء، والأمان من فزع هذه المواطن الثلاثة، حيث يكون الإنسان في أضعف حالاته وأحوجها إلى لطف الله:

ففي **يوم مولده:** سلم من نزغ الشيطان وطعنه الذي يمسّ كل مولود، وولد ليكون آيةً وبرهانًا قاطعًا على براءة أمه الطاهرة مريم عليها السلام من إفك المفترين.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (مَا مِنْ بَنِي آدَمَ مَوْلُودٌ إِلَّا يَمَسُّهُ الشَّيْطَانُ حِينَ يُولَدُ **فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ غَيْرَ مَرْيَمَ وَابْنِهَا** ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ (**وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**) [2]

قال النووي (ظاهر الحديث اختصاص هذه الفضيلة بعيسى وأمه، وأشار القاضي عياض أن جميع الأنبياء يشاركون فيها، أي لعصمتهم من الشيطان، وإنما نص على مريم وعيسى فقط لدعوة امرأة عمران ، وغيرهما من بقية الأنبياء ملحق بهما)[3].

---

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 128 رقم 4095
[2]) رواه البخاري ج11 ص 246 رقم 3177
[3]) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج1 ص 148

وفي **يوم موته**: يكون قد نزل في آخر الزمان حكمًا مقسطًا، كاسرًا للصليب، ومؤتمًّا بإمام المسلمين في الصلاة؛ إعلانًا لاتحاد رسالة الأنبياء، ثم يقبضه الله إليه في سلامةٍ وطمأنينةٍ وكرامة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيَّ ﷺ (يُوشِكُ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا يَكْسِرُ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلُ الْخِنْزِيرَ وَيَضَعُ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضُ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ)[1]

وفي **يوم بعثه حيًّا**: يقوم آمنًا من الفزع الأكبر، ليكون شهيدًا على قومه، ويُلقّنه الله الحجة البالغة في موقف الحساب العظيم؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (يُلَقَّى عِيسَى حُجَّتَهُ فَلَقَّاهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ" قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فَلَقَّاهُ اللَّهُ "**سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**.. الْآيَةَ)[2].

وهكذا جمع عيسى عليه السلام في هذه الكلمات المعدودات بين إقراره التام بالعبودية، وتبرئة ساحة النبوة من كل ادّعاء باطل، واستشعار معيّة الله وحفظه في رحلة الوجود بأكملها، من المهد إلى اللحد، ومن اللحد إلى الخلد.

قوله (ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ * مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ) (34-35) اسم الإشارة عائد إلى ما تقدم من وصف لعيسى ابن مريم من حيث طبيعته البشرية وصفاته الخلقية ليحسم ما اختلف فيه البشر بشأنه.

فقد اختلف الناس في صفة عيسى بن مريم على مشارب شتى حتى تنكبوا وجه الحق فيه ، إذ تدور أقوال الضالين حوله أنه ابن الله أو هو الإله ، وقد نفى الله أن يكون له ولد ، فإن ضعفت العقول عن استيعاب خلق الله لعيسى بدون أب ، فإن ذلك راجع لضعفها عن استيعاب قدرة الله في الخلق أو تصورها ، وفي ذلك تهوين منهم لشأن الله تعالى ، وعلوه على البشر ، وأنه سبحانه بائن من خلقه .

في قولِ تعالى: ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: 35] دلالةً قاطعةً على كمالِ القدرة الإلهية، وسرعةِ إنفاذِ المشيئة الربانية دون كلفةٍ أو معاناة. فالكونُ الفسيحُ بكلِّ ما فيه من عوالمَ وأفلاكٍ إنما برزَ من العدمِ إلى الوجودِ بمجردِ صدورِ هذا الأمرِ الإلهيِّ الموجز، إذ قال له: «كُن» فكانَ في لمحِ البصر، وما يتجددُ في هذا الكونِ من خلقٍ وتكوينٍ على مرِّ الأزمان لا يخرجُ عن هذا الناموسِ الإلهيِّ المحكمِ بين الكافِ والنون؛ مصداقًا لقوله عزَّ وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ (النحل: 40).

وقد استنبطَ أئمةُ التفسير وعلماءُ البيانِ من مجيءِ الفعلِ ﴿فَيَكُونُ﴾ بصيغةِ المضارعةِ الدالةِ على التجددِ والاستمرار، أنَّ أمرَ اللهِ وخلقَه لا ينفدانِ أبدًا، بل هو سبحانه في شأنٍ دائمٍ من الإيجادِ والإمداد[3].

ويؤكدُ ذلك ما أخرجه الإمامُ البخاريُّ في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ: أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أُنْفِقْ عَلَيْكَ» وقال: «يَدُ اللَّهِ مَلْأَى لاَ تَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ».

---

[1]) رواه أحمد ج15 ص 12 رقم 6971

[2]) رواه الترمذي ج10 ص 325 رقم 2988 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج7 ص 62 رقم 3062

[3]) د أكرم كساب :

فإذا كان هذا شأنُ الخالقِ العظيمِ في طلاقةِ قدرته، فعلامَ يشتطُّ المجادلون في شأنِ خلقِ عيسى بنِ مريمَ عليه السلام من غيرِ أب؟! إنَّ خلقَه على اللهِ هيّنٌ يسير، وما هو إلا مخلوقٌ اصطفاه اللهُ بكلمتِه؛ ولذا جاءَ البيانُ القرآنيُّ حاسمًا في ردِّ غلوِّهم بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: 171]. وقد حذَّر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أُمَّتَه من هذا المزلقِ الخطير، فقال فيما رواه البخاري: «لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ، وَرَسُولُهُ».

ثم تأتي الآيةُ الكريمةُ لتقرِّرَ جوهرَ التوحيدِ الخالصِ على لسانِ المسيحِ نفسِه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: 36]. إنَّ إخلاصَ العبادةِ للهِ وحدَه هو السيرُ الحثيثُ على الصراطِ المستقيم، الذي يمثِّلُ أقصرَ طريقٍ وأقومَه لبلوغِ مرضاةِ الله؛ إذ إنَّ العلاقةَ بين العبدِ وربِّه في الإسلامِ علاقةٌ مباشرةٌ لا تشوبُها وساطةٌ ولا حجاب. فالعبدُ يناجي خالقَه بالصلاةِ والدعاءِ والذكرِ دونَ الحاجةِ إلى واسطةٍ من نبيٍّ مرسلٍ أو ملكٍ مقرَّب، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: 186)

وبهذه الكلمةِ الجامعةِ ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، يدمغُ القرآنُ عقائدَ التثليثِ والوساطةِ من جذورها، ويقرِّرُ مبدأً عقديًّا راسخًا مفادُه أنَّ الأنبياءَ والمرسلين إنما بُعثوا ليربطوا الخلقَ بالخالق، لا ليجعلوا من أنفسهم أندادًا أو وسطاءَ يُعبدون من دون الله. وهذا ما أشار إليه شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رحمه الله بقوله: «إنَّ الرسلَ صلواتُ اللهِ عليهم أجمعين إنما بُعثوا بتحقيقِ التوحيدِ وإخلاصِ الدينِ للهِ وحدَه، فلا يُدعى إلا الله، ولا يُستغاثُ إلا بالله، ولا يُتوكَّلُ إلا على الله». ويتجلَّى هذا المعنى في أبهى صورِه في قولِ الحقِّ سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 79-80).

لو تنزّلنا مع المخالفين من النصارى في ميدان الجدل والمناظرة، وسلّمنا جدلًا بما يزعمون من بنوّة المسيح عليه السلام لله –تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا–، لبقي السؤال الفطريّ والعقليّ قائمًا يُلقي بظلاله على العقول السليمة : لماذا نُعرض عن التوجّه بالعبادة الخالصة لله رب العالمين مباشرة، ونصرفها لابنه؟ !أليس الأصل في العبودية أن تُساق إلى الخالق الأوحد دون واسطة أو شريك؟

وإذا مضينا معهم خطوة أخرى في هذا التسليم الجدلي، وافترضنا صحة قولهم بالتجسّد والاتحاد في عقيدة "الثالوث" المؤلّفة من (الأب، والابن، والروح القدس)، فإنّ التساؤل يغدو أشدّ إلحاحًا وأعمق دلالة: ما الحكمة في أن نعبد إلهًا يتّخذ صورة البشر الفانية فيما يُسمّونه بـ "الناسوت"، مقترنًا بطبيعته الإلهية التي يُطلقون عليها "اللاهوت"؟ أليس الأجدر بالعقل المؤمن أن يُجرّد "اللاهوت" عن أدران "الناسوت"، ويعبد إلهًا منزّهًا مطلقًا، متعاليًا عن القيود، غير متجسّد في صورة مخلوقٍ عاجزٍ تكتنفه النواقص، ويفتقر في بقائه إلى الغذاء والإخراج؟!

وهذا المعنى الجليل هو ما قرّره القرآن الكريم بأبلغ بيان وأوضح برهان، حين كشف حقيقة المسيح وأمه عليهما السلام، وردّهما إلى بشريتهما الصادقة المفتقرة إلى الله، فقال سبحانه :﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: 75)

وقد وقف أئمة التفسير وفقهاء الأمة عند قوله تعالى) :كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ (وقفة تأمّلٍ واستدلال؛ إذ أجمعوا على أنّ من احتاج إلى الطعام ليقيم صُلبه، استلزم ذلك بالضرورة حاجته إلى التخلّص من فضلاته، ومن اعتراه الضعف

والافتقار والنقص البشريّ، استحال في حقّه أن يكون إلهًا يُعبد من دون الله. فالإله الحق هو الصمد الغنيّ عن العالمين، الذي يُطعم ولا يُطعم، ويجير ولا يُجار عليه.

ولقد حسم النبي ﷺ هذه القضية حسماً قاطعاً، وقطع دابر الغلوّ في الأنبياء والصالحين، فوضع الميزان العدل لمقام المسيح عليه السلام في حديثه الشريف الذي رواه البخاري، حيث قال» :مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ»

فأين هذا التوحيد الخالص الذي يربط العبد بخالقه مباشرة دون حُجُبٍ أو وسائط، من عقائد تُلزم أصحابها بتأليه بشرٍ يأكل ويشرب وينام ويتألم؟! إنّ الفطرة السليمة والعقل الصريح يأبيان إلّا أن يُفرِدَا الله بالعبودية، منزّهًا عن الشبيه والنظير، وعن الحلول والاتحاد والتجسيد.

قوله (فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ) (37) اختلفت أحزاب النصارى في شأن عيسى بن مريم ، ما بين مفرط ومغالي ، قال ابن عاشور (فالاختلاف مؤذن بأنهم **كانوا متفقين** ولم يكن اليهود موافقين النصارى في شيء من الدين، وقد **كان النصارى على قول واحد على التوحيد في حياة الحواريين** ثم حدث الاختلاف في تلاميذهم)[1] ، قال تعالى (فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59).

كما بيّن الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية أن أهل الكتاب افترقوا في عيسى عليه السلام إلى طوائف متباينة؛ فمن قائل إنه عبد الله ورسوله وهو الحق الذي بُعث به، ومن قائل إنه ابن الله، ومن قائل إنه ثالث ثلاثة، ومن قائل إنه هو الله، فاستحق الكافرون بذلك الوعيد الشديد.

إن الذين فرّطوا في حق المسيح عليه السلام وجحدوا نبوته، يستوون في الضلال مع الذين غالوا فيه ورفعوه إلى مقام الألوهية بغير سلطان ولا برهان. وسيأتي ذلك اليوم المهيب الذي يتبرأ فيه عيسى عليه السلام من كل من غلا في شأنه؛ يوم يُنصب مشهدٌ عظيم، يريد المولى سبحانه أن يُشهد فيه الخلائق قاطبةً عاقبة الظالمين، وحسرة الكافرين، وهم في ذهولٍ مطبق من هول المفاجآت، وقد انكشفت الحجب، وأيقنوا يقيناً لا يخالطه شك أن الله هو الإله الواحد القهار، وأدركوا حقيقة مآل الدنيا ومن عليها، وأن الملك والمرجع يومئذٍ لله وحده.

وقد صوّرت سورة المائدة هذا الموقف الجليل بأبلغ بيان، حيث يقف نبي الله عيسى ابن مريم عليه السلام بين يدي ربه، معزولاً عن قومه، ليُسأل على رؤوس الأشهاد عن افتراءاتهم ومغالاتهم، فيُجيب في أدب النبوة وخشوع العبودية: (قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (المائدة/116-118)).

وفي هذا السياق القرآني البليغ تتجلى براءة الأنبياء التامة من انحرافات أتباعهم، وتقوم الحجة الدامغة على كل من زاغ عن عقيدة التوحيد الخالص.

[1]) التحرير والتنوير ج16 ص 39

قوله (أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (38) لقد جاءت صيغتا التعجب في قوله تعالى» :أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ «لتفيد المبالغة البليغة في بيان انكشاف الحقائق يوم العرض الأكبر؛ وذلك تقريعاً لهم وتشهيراً بباطلهم، حتى تنقطع حجتهم وتخرس ألسنتهم فلا يجدون مساغاً لعذر، ولا سبيلاً لاعتذار. وقد أشار أئمة التفسير، كالطبري وابن كثير، إلى أن هذا التعجب إنما هو من شدة سمعهم وإبصارهم يوم القيامة حين يزول عنهم الغطاء، بعد أن كانوا في الدنيا صماً بكماً عمياً عن آيات الله البينات.

إن هؤلاء الذين اتخذوا عيسى بن مريم إلهاً من دون الله، لا عذر لهم البتة في ضلالهم ولا شبهة تدرأ عنهم الحجة؛ فقد قرعت أسماعهم البراهين القاطعة والرسالات السماوية التي تصدح بأن المسيح عليه السلام ما هو إلا عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. كما شهدت أبصارهم وعقولهم دلائل بشريته التي لا تليق بجلال الألوهية؛ إذ رأوا وعلموا يقيناً أنه بشرٌ يأكل الطعام ويشرب الشراب، ويعتريه ما يعتري سائر الخلق من الحاجة والافتقار، وذلك كله بإقرارهم واعترافهم في صميم عقائدهم وكتبهم، مصداقاً لقوله تعالى في شأنه وشأن أمه "كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ "(المائدة: 75).

ومن ثمّ، فإن الجزاء العادل والمصير المحتوم للمصرين على عبادته والمكابرين عن توحيد الله، أن يُحجبوا يوم القيامة عن رؤية ربهم ومولاهم، وأن يضلوا عن طريق النجاة كما ضلوا عن جادة الحق في دار الدنيا؛ فيُساقون إلى حتفهم وراء معبوداتهم الباطلة. وقد تجلى هذا المشهد المهيب في الحديث الصحيح " لِتَتْبَعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ"

عن النبي ﷺ قال (إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ مِنْ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ بَرٌّ أَوْ فَاجِرٌ وَغُبَّرَاتُ أَهْلِ الْكِتَابِ فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيُقَالُ لَهُمْ مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَمَاذَا تَبْغُونَ فَقَالُوا عَطِشْنَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا فَيُشَارُ أَلَا تَرِدُونَ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَأَنَّهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيُقَالُ لَهُمْ مَنْ كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ لَهُمْ كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ فَيُقَالُ لَهُمْ مَاذَا تَبْغُونَ فَكَذَلِكَ مِثْلَ الْأَوَّلِ حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا فَيُقَالُ مَاذَا تَنْتَظِرُونَ تَتْبَعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ قَالُوا فَارَقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا عَلَى أَفْقَرِ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ وَنَحْنُ نَنْتَظِرُ رَبَّنَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ فَيَقُولُ أَنَا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا)[1].

قوله (وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) (39) فسبب الحسرة هو انقضاء الأمر بذبح الموت على هيئة كبش ، فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ **يُؤْتَى بِالْمَوْتِ** كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ فَيُنَادِي مُنَادٍ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ثُمَّ يُنَادِي يَا أَهْلَ النَّارِ فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ فَيَقُولُ هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا فَيَقُولُونَ نَعَمْ هَذَا الْمَوْتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ **يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ** ثُمَّ قَرَأَ (وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ) وَهَؤُلَاءِ فِي غَفْلَةِ أَهْلُ الدُّنْيَا (وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) [2]

[1]) رواه البخاري ج14 ص 74 رقم 4215
[2]) رواه البخاري ج14 ص 358 رقم 4361

قوله (إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ) (40) فالله سبحانه هو الحي القيوم الباقي الذي لا يزول، وأن ما سواه من الخلائق صائرٌ إلى العدم والفناء، مصداقًا لقوله تعالى :(**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ**) (الرحمن: 26-27]. غير أن هذا الفناء ليس نهاية المطاف؛ بل يعقبه بعثٌ ونشور، وحسابٌ دقيقٌ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، ثم جزاءٌ عادلٌ يوفي كلَّ نفسٍ ما كسبت.

فالوارث سبحانه هو الله الباقي بعد فناء الخلق ، فهو الوارث لجميع الأشياء بعد فناء أهلها [1]، قال تعالى : (وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (آل عمران:180) (وَمَا لَكُمْ أَلا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الحديد:10) .

إن استئثار الحق سبحانه بوصف" الوارث "يرسخ في الوجدان أنه **المالك الحقيقي** الذي لا شريك له في ملكه ولا منازع له في سلطانه. ولتقريب هذا المعنى الجليل إلى الأذهان، نجد أن الوارث في أعراف البشر هو من تؤول إليه تركة مورثه بحقٍّ شرعي مقطوع لا يزاحمه فيه أحد، وتظل هذه التركة محفوظةً وموقوفةً لصاحبها حتى يأذن الله بانتقالها إليه، فلا يملك أحدٌ التصرف فيها بغير إذنه. وهكذا شأن العباد مع ربهم؛ فهم وإن توهموا أنهم يملكون الأموال والضياع، فإنما هم **مستخلفون فيها** إلى أجلٍ مسمى، ثم تعود **الملكية خالصةً** لمالك الملك الحق.

وقد صوّر النبي ﷺ هذا المعنى بأبلغ بيان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (يَقُولُ **الْعَبْدُ: مَالِي مَالِي، إِنَّمَا لَهُ مِنْ مَالِهِ ثَلَاثٌ**: مَا أَكَلَ فَأَفْنَى، أَوْ لَبِسَ فَأَبْلَى، أَوْ أَعْطَى فَاقْتَنَى، **وَمَا سِوَى ذَلِكَ فَهُوَ ذَاهِبٌ وَتَارِكُهُ لِلنَّاسِ**] رواه مسلم. وقال الإمام ابن القيم رحمه الله مبينًا حقيقة ملك العبد" :**العبد وماله لمولاه**، فما بيد العبد عاريةٌ مستردة، ووديعةٌ مسترجعة، **والمالك على الحقيقة هو الله وحده**."

ولعل أبلغ مثالٍ يوضح حال الإنسان في هذه الدنيا، أن ننظر إلى ملكٍ عظيمٍ أوشك عهده على الانقضاء، وعلم الجميع أن سلطانه وخزائنه ستؤول عما قريب إلى وارثه الشرعي؛ فإن الحاشية والخدم العقلاء في قصره لا يغترون ببريق الملك الزائل، بل يسارعون إلى كسب ودّ الوارث ورضاه، لعلمهم أن مقاليد الأمور ستصير إليه بعد أيام معدودات، وأن بقاءهم وأمانهم مرهونٌ برضا خلفه. فما أجدر بالعاقل أن يدرك أن الدنيا قصرٌ زائل، وأن الله هو الوارث الباقي، فيبادر إلى مرضاته، وينفق مما استخلفه فيه قبل أن يؤول الملك كله إلى صاحبه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

[1]) أسماء الله الحسنى ج14 ص 19

المحور الثالث

اعتزال ابراهيم قومه بعدما أعياه النداء

قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاء رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50)

تسلط هذه الآيات المباركات الضوء على مسيرة نبي الله إبراهيم عليه السلام، حيث يرسم القرآن الكريم مشهداً مؤثراً لحواره الحكيم واللطيف مع أبيه وقومه لدعوتهم إلى التوحيد، وكيف واجه إصرارهم على عبادة الأصنام بالصبر والثبات.

ويستعرض هذا المقطع القرآني قرار إبراهيم الحاسم باعتزال أبيه وقومه وما يعبدون من دون الله، ليثبت أن روابط الأبوة والنسب لا يمكن أن تقف عائقاً أمام إخلاص العبودية لله وحده. بل متى ما تحولت هذه الروابط إلى قيود تصد عن الحق، وجب على المؤمن مجاهدتها والتحرر من أسر الشرك والباطل، وهو المعنى العظيم الذي يقرره قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة: 22)

وتُختتم هذه الحلقة ببيان سنة الله في جبر الخواطر وتعويض الصابرين؛ فحين ترك إبراهيم أهله وديارَه ابتغاء مرضاة ربه، أكرمه الله بعوضٍ عظيم فوهب له إسحاق ويعقوب، وجعل في ذريته النبوة والكتاب، فنشأت من نسله أمة مباركة تحمل لواء التوحيد عبر الأجيال.

قوله (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا) (41) وصفه الله بأنه "صديق" واللفظ صيغة مبالغة مشتقة من الصدق ، وينطبق على كل من آمن بالله ورسوله ، لقوله (والذين آمنوا بالله ورسله أولئك هم الصديقون) (الحديد19)، قال ابن عاشور (غلب استعمال وصف الصديق استعمال **اللقب الجامع لمعاني الكمال** واستقامة السلوك في طاعة الله تعالى، لأن تلك المعاني لا تجتمع إلا لمن قوي صدقه في **الوفاء بعهد الدين**)[1]، فمرتبة الصديقية هي ذروة الكمال البشري في طاعة الله ورسوله .

ويضيف الإمام الرازي أن الصِّدِّيق هو" الذي يتكرر منه الصدق في أقواله وأفعاله واعتقاداته حتى يصير له ذلك ملكةً راسخة ."ويؤكد الإمام الطبري أنه" الكثير التصديق بالحق، المبالغ في الصدق، الذي لا يشوب إيمانه شك، ولا عمله رياء."

[1]) التحرير والتنوير ج12 ص 72

ووصفه بأنه "نبي" أي ترقى من مرتبة الصديق التي تنال بالكسب والاجتهاد إلى مرتبة النبوة والوحي التي تنال بالاصطفاء

وتقديم وصف "الصديق" على "النبي" يحمل سرًّا تربويًا وإيمانيًا عميقًا؛ فالصِّدِّيقية مرتبةٌ تُنال بالمجاهدة، والعمل الدؤوب، وإخلاص الوجهة لله، أما النبوة فهي محض فضلٍ واصطفاءٍ من الله يختص به من يشاء، كما قال سبحانه : ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾

فلم ينل إبراهيم –عليه السلام– هذه المرتبة إلا بعد أن بلغ الغاية في الصدق والإخلاص، وتزكّت نفسه بالعبودية الخالصة، فتأهل لذلك ليكون محلًا لوحي الله ورسالته؛ فسُنّة الله الجارية أنه لا يصطفي لمقام النبوة إلا من بلغ الذروة في الصِّدِّيقية، فكل نبيٍّ هو بالضرورة صديقٌ كامل الصدق، وليس كل صديقٍ نبيًا.

ويعقب ابن القيم في مدارج السالكين بقوله إن" الصِّدِّيقية هي أعلى مراتب الخلق بعد النبوة، وهي الباب الأعظم الذي يلج منه العبد إلى رضوان الله، ولم ينل الأنبياء ما نالوه من الكرامة إلا بكمال صدقهم مع الله."

ويمكن استخلاص بعض الفوائد التربوية مما تقدم كما يلي : –

- **تزكية الباطن قبل تصدُّر المشهد** :تُعلّمنا الآية أن بناء الذات بالصدق والإخلاص في الخلوات هو الأساس المتين لأي رفعةٍ أو مسؤولية في الحياة؛ فمن أراد التوفيق في تبليغ الحق أو قيادة الخلق، فعليه أن يُصلح سريرته أولًا.
- **الصدق مفتاح التوفيق والاصطفاء** :إن العبد قد لا يبلغ مرتبة النبوة لانقطاع الوحي، لكن باب الصِّدِّيقية مفتوحٌ على مصراعيه؛ فكلما ازداد العبد صدقًا مع ربه، اصطفاه الله لطاعته، وفتح له أبواب الفهم، وجعله إمامًا في الخير.
- **الجمع بين العلم والعمل** :لم يكن إبراهيم –عليه السلام– صاحب معرفةٍ مجردة، بل كان صدّيقًا يصدّق قوله بفعله، ونبيًا يهدي الناس بعلمه؛ وفي ذلك تربيةٌ للدعاة والمصلحين على ضرورة تطابق السلوك مع الخطاب.
- **عظمة التدرج والترقي في المقامات** :تُبرز الآية أن الكمال الإنساني رحلةٌ من الترقي المستمر؛ يبدأها العبد بمجاهدة نفسه على الصدق والوفاء، فيتولاّه الله برعايته، ويرفعه إلى مقامات القرب والاصطفاء التي لم تكن تخطر له على بال.

في قوله تعالى :﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾(مريم: 42)، تتجلّى معالمُ المنهج النبويّ الرشيد في الدعوة إلى الله، الذي يجمع بين الأسلوب العاطفي والعقلي في آن واحد ، ويتدرج في توسيع دائرة المخاطبين من الأقرب إلى الأبعد حيث ابتدأ خليلُ الرحمن إبراهيمُ –عليه السلام– مسيرتَه الإصلاحية بأقرب الناس إليه؛ فكان أبوه هو أول مَن وُجّهت إليه أنوارُ الهداية، انطلاقًا من القاعدة الربانية الخالدة في البدء بالأقربين، تلك القاعدة التي امتثلها نبينا محمد ﷺ حين نزل عليه قول الله تعالى :﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: 214)؛ فعن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ يُنَادِي: «يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ» لِبُطُونِ قُرَيْشٍ، ويَدْعُوهُمْ قَبَائِلَ قَبَائِلَ) [1]، ولهذا ابتدأ نبي الله توجيه دعوته لأبيه أولا تمهيدا لأن يوجهها لقومه وعشيرته ثانيا .

[1]) رواه البخاري ج11 ص 353 رقم 3263

تميز إبراهيم عليه السلام في دعوته برِفق البِرّ ولُطف الخِطاب

فلقد ضرب إبراهيم –عليه السلام– أروع الأمثلة في الجمع بين صلابة العقيدة ولين الجانب؛ فلم يترك أباه فريسةً للشيطان، ولم يواجه ضلاله بالتعنيف أو الجفاء، بل ناداه أربع نداءات متتابعة بصيغة التودد والتحبب :﴿يَا أَبَتِ﴾؛ استدرارًا لعاطفة الأبوة، وقيامًا بحق البِرّ والإحسان، وتأليفًا لقلبه كي يتهيأ لقبول الحق.

وقد وقف المفسرون عند هذه اللفتة التربوية البديعة وقفاتٍ متأنية؛ فيقول الإمام ابن عاشور في التحرير والتنوير : (في تكرير قوله: (يا أبتِ) إظهارٌ للرأفة والشفقة، وإشعارٌ بأن ما يدعوه إليه إنما هو محض النصح له، وأن مخالفته إياه في الدين لم تُنقص من حقه عليه شيئًا».

ويؤكد الإمام القرطبي في تفسيره أن هذا الأسلوب هو أصلٌ في أدب الدعوة؛ إذ ينبغي للداعي أن يخاطب المدعوَّ بأرقِّ الألفاظ وأحبِّها إلى نفسه، ولا سيما إذا كان ذا رحمٍ أو فضلٍ أو كِبَرِ سِنّ.

مُخاطبةُ العقلِ بالبرهانِ الجليّ

فبعد أن طرق إبراهيمُ بابَ القلب بلطف النداء، طرق بابَ العقل بسؤالٍ استنكاريٍّ يهزُّ الوجدان ويوقظ الفطرة الغافلة :﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ .إن منطق العقل السليم يقتضي أن يكون المعبودُ أرقى وأكمل من العابد؛ فكيف يليق بإنسانٍ وهبه الله السمع والبصر والإدراك، أن يخرَّ ساجدًا لجمادٍ أصمَّ لا يسمع دعاءه، وأعمى لا يبصر خضوعه، وعاجزٍ لا يملك له نفعًا ولا يدفع عنه ضرًّا؟!

وفي بيان وجه هذا الاستدلال العقلي، يقول الشيخ السعدي في تفسيره: «نهاه عن عبادة الأوثان، وبيَّن له وجهَ البطلان فيها، وأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن عابدها شيئًا، لا في جلب منفعة ولا في دفع مضرة، فكيف يعبدها مَن هو أكمل منها خَلْقًا وعقلًا؟!».

كما أشار الإمام الرازي في مفاتيح الغيب (إلى أن نفي السمع والبصر ثم نفي الإغناء جاء على سبيل التدرّج في إبطال الألوهية؛ فمن افتقد أدنى صفات الكمال الحسي (السمع والبصر)، كان افتقاده للقدرة على النفع والدفع (الإغناء) من باب أولى)، مصداقًا لقوله تعالى في موضع آخر :﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ (الأحقاف: 5)

ويمكن استخلاص بعض الدروس التربوية والدعوية فيما يلي :–

إن هذا الموقف الإبراهيمي يرسم للدعاة والمربين خارطةَ طريقٍ متكاملة في إصلاح النفوس وتقويم الاعوجاج، تتلخص في معالمَ تربويةٍ سامية:–

- **الجمع بين مفتاحَي القلب والعقل** : فالداعية الفطن لا يكتفي بإقامة الحجة العقلية الجافة التي قد تثير الكِبر والعناد، ولا يقتصر على العاطفة المجردة دون برهان، بل يمزج بينهما؛ فيلين القلب بالرفق وحسن الأدب (يا أبتِ)، ويستنير العقل بالحجة الهادئة التي تضع المدعوَّ أمام نفسه ليكتشف زيف ما هو عليه دون تجريحٍ لشخصه.
- **الاستفهام الاستنكاري وسيلةٌ لإزالة الغشاوة** :لم يبدأ إبراهيم أباه بالتكفير المباشر أو التقريع، بل طرح سؤالًا يدفعه للتفكير الذاتي؛ لأن الإنسان إذا اكتشف خطأه بنفسه كان أسرعَ للرجوع وأصدقَ في التوبة، مصداقًا لقول الله تعالى :﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125).

- **التدرج في توسيع دائرة الإصلاح من الخاص إلى العام** : إن إصلاح الدائرة القريبة هو التوطئة الطبيعية والقاعدة الصلبة للانطلاق نحو إصلاح المجتمع بأسره؛ فمَن نجح في الصبر على دعوة أهله بالرفق والحكمة، كان أقدرَ على تحمّل أذى قومه ومجابهة باطلهم بالثبات واليقين.
- **تحرير الإنسان من التعلّق بالأسباب الواهية** :تُربّي الآيةُ المؤمنَ على أن يقطع رجاءه من كل ما سوى الله؛ فكما أن الأصنام الحجرية لا تغني شيئًا، فكذلك كلُّ ما يُعظَّم من دون الله من أسبابٍ ماديةٍ أو قوًى متوهّمةٍ تبقى عاجزةً فقيرة، ولا ملجأ ولا منجى إلا بالله السميع البصير القادر على كل شيء.

قوله تعالى: (يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) [مريم: 43] ارتقى نبي الله إبراهيم –عليه السلام– في معارج الخطاب الدعوي درجةً أخرى، متلطفًا في بيان ما وهبه الله إياه من فيض العلم الرباني الذي حُرم منه أبوه. وقد قرر بذلك سُنّة كونيةً ومنطقية، وهي أن من قصر علمه وجب عليه أن يأتمَّ بمن هو أعلم منه وأبصر، ثم كشف له عن مقصده النبيل، ألا وهو الرغبة الصادقة في انتشاله من وهدة الضلال إلى رحاب الهداية والصراط السوي.

وفي هذا المقام تتجلى فائدة تربوية ودعوية جليلة؛ إذ لا حرج على الداعية إلى الله أن يُعرّف بمؤهلاته العلمية ورسوخه في الحق حين يشرع في مخاطبة المدعوين، فذلك أدعى لإلقاء الطمأنينة في قلوبهم، وتوطين نفوسهم على التصديق والثقة. وللداعية أن يوازن بين نور العلم الذي يحمله وظلمة الجهل التي يتخبط فيها قومه، لا بدافع الاستعلاء الكاذب أو الانتصار للنفس، وإنما من باب كشف الغشاوة عن أبصارهم، وإشعارهم بأنهم غافلون عما أبصره، وذاهلون عما سمعه وفقهه.

غير أن هذا البيان يجب أن يُغلَّف بأدب التواضع الجمّ؛ لذا لم ينسب إبراهيم أباه إلى الجهل الفاضح، ولم ينسب نفسه إلى العلم المطلق، وإنما صاغ العبارة بأسلوب رقيق يبعث على القبول، وقد أشار الإمام الألوسي إلى هذه اللطيفة البلاغية قائلًا: "ولم يسِم أباه بالجهل المفرط وإن كان في أقصاه، ولا نفسه بالعلم الفائق وإن كان كذلك، بل أبرز نفسه في صورة رفيقٍ له يكون أعرف بأحوال ما سلكاه من الطريق فاستماله برفق"[1].

ويؤكد الإمام ابن كثير هذا المعنى التربوي مبينًا أنه لم يقل له: أنا أعلم منك، بل قال: قد جاءني من العلم ما لم يأتك، فكأنه يقول: نحن مشتركان في أصل العلم، ولكن اختصني الله بزيادة علم في هذا الباب، وهو منتهى الأدب مع الوالد.

وقوله: (فَاتَّبِعْنِي) يبرهن على أن دعوة الخليل لأبيه لم تكن دعوةً إلى تقليد أعمى أو تبعية جاهلة كما هو دأب المبطلين الذين يقدسون الموروث ولو كان باطلًا، وقد ذمّ القرآن هذا المسلك في قوله تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) [البقرة: 170]. لقد ثار إبراهيم على سُنّة قومه في التبعية العمياء، وتصدّر ليكون إمامًا متبوعًا لا مقلدًا تابعًا؛ ليقينه الراسخ بأنه على الحق المبين، وأن قومه على الباطل المبين. فانتدب نفسه لتحمل أمانة هدايتهم بما اصطفاه الله به من الوحي، إذ لا خلاص لهم من أسر الشيطان إلا بالانقياد لما يحمله من نور العلم الإلهي.

[1]) تفسير الألوسي ج11 ص 498

وقوله: (أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا) يرسخ حقيقة أن غاية الأنبياء والمصلحين عبر العصور واحدة؛ فطريق الحق طريقٌ سويٌّ معتدل، لا اعوجاج فيه ولا التواء، بل هو ممهّد للسالكين، صافٍ من شوائب الشرك، نقيٌّ من كدر الأوهام. وقد جمع القرآن في وصف طريق الله بين "الاستقامة" و"السواء"، وهي إشارة دقيقة لحال السالكين؛ فإن تاه السائر واضطربت خطاه أرشده القرآن إلى الطريق المستقيم، وإن تخبط في الظلمات واستوعر المسالك هداه إلى الصراط السوي، وكلاهما وصفٌ لحقيقة واحدة، مصداقًا لقوله تعالى: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [الأنعام: 122].

قوله تعالى: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) [مريم: 44] هنا انتقل الخليل من الترغيب اللطيف إلى الترهيب الشديد، فغلّظ في التحذير مقبّحًا لأبيه ما هو مقيم عليه، ومكاشفًا إياه بحقيقة ما يصنع؛ إذ سمّى عبادته للأصنام عبادةً صريحة للشيطان، وحذّره من عاقبة الخروج عن منهج الله، مبينًا أن كل من والى الشيطان واتبع خطواته فقد استهدف لسخط الرحمن وعذابه، بقدر انغماسه في الغواية والاستجابة للإغواء.

ومن الفوائد التربوية في هذا المسلك القرآني: أن تقبيح الباطل وتسميته باسمه الحقيقي يورث في نفس العبد نفورًا فطريًا منه، ويحول بينه وبين الاستسلام لحبائل عدوه. فكل عبادة تُصرف لغير الله –سواء أكانت لصنم أم كوكب أم هوى– هي في حقيقتها عبادة للشيطان وطاعة له، لقوله تعالى: (أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) [يس: 60]. فما دام العبد سائرًا في غير صراط الله، فهو يتقلب في شباك الشيطان، سواء أدرك ذلك أم جهله؛ لأن كل السبل المعوجة تنتهي إليه، ومن أخطر حبائله تزيين الأوثان التي أطلق عليها العرب أسماء الإناث، كما فضحهم القرآن بقوله: (إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا) [النساء: 117].

وهكذا تتسع دائرة عبادة الشيطان في واقع الناس لتشمل كل صور الاستعباد لغير الله؛ كاللهث المحموم وراء حطام الدنيا وشهواتها، والاستكبار بطلب الجاه والسلطان والمال، مصداقًا لحديث النبي ﷺ : "تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ" رواه البخاري. ويقول سيد قطب في (الظلال) معلقًا على هذه الآية: "إن الذي يعبد غير الله إنما يعبد الشيطان؛ لأن الشيطان هو الذي يزين له عبادة غير الله، وهو الذي يوسوس له بها، فطاعته له هي عبادته إياه".

وقوله (إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا) يضع الميزان القاطع لرفض اتباع الشيطان ولو قيد أنملة؛ إذ كشف عن هويته الحقيقية بأنه متمردٌ على خالقه، ومن كانت هذه صفته فليس أهلًا لأن يُطاع أو يُتبع. وقد جاءت لفظة "عَصِيًّا" على صيغة المبالغة[1] ؛ لتدل على أن المعصية ليست عارضًا يطرأ عليه، بل هي وصفٌ لازمٌ له وطبيعةٌ متجذرة في كيانه.

وفي ختام الآية لفتة بلاغية بديعة؛ حيث أضاف عصيان الشيطان إلى اسم الله "الرَّحْمَٰنِ" دون غيره من الأسماء الحسنى، ليُبرز بشاعة جرمه وقبح تمرده؛ إذ قابل فيض الرحمة الإلهية بالجحود والعصيان. وقد أجاد العلامة أبو السعود في تفسيره (إرشاد العقل السليم) حين كشف عن هذا السر قائلًا: "والاقتصارُ على ذكر عصيانه من بين سائر جناياتِه

[1]) الوجيز للواحدي ج1 ص 491

لأنه مَلاكُها، احترازًا عن موالاته وطاعته، والتعرضُ لعنوان الرحمانية لإظهار كمالِ شناعة عصيانِه"[1]؛ إذ لا أشنع من أن يُعصى المنعم المتفضل برحمته على عباده.

إن الاحتراز من طاعة الشيطان لم يمنعا النبي ﷺ من تصديق الشيطان فيما نطق به من حق؛ فالصدق يظل صدقاً وإن جرى على لسان الشيطان ذاته، ما دام لم ينفرد به، بل ثبتت صحته من طريق الصادقين. فخبر الصادق لا تضعف حجيته إذا وافقه كذوب، كما أن قول الكذوب لا يُردّ إذا صادف تصديق الصادق له؛ وذلك كما ورد في حديث تمثّل الشيطان لأبي هريرة رضي الله عنه حين أراد الأخذ من تمر الصدقة .

ففي حديث أبي هريرة قَالَ وَكَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ قَالَ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ قَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا قُلْتُ مَا هُوَ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ قَالَ مَا هِيَ قُلْتُ قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ لَا قَالَ ذَاكَ شَيْطَانٌ)[2].

قوله (يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا) (45) خاف إبراهيم على أبيه أن يمسه عذاب الله سواء كان هذا العذاب في الدنيا أم في الآخرة ، فيكون ملازما للشيطان في الجحيم قال الألوسي (الولاية للشيطان بهذا المعنى إنما تترتب على مس العذاب)[3]، يقصد الألوسي أن الولاية للشيطان هنا تعني المرافقة والمقارنة له في العقوبة، وليست الطاعة والانقياد له في المعصية. وبناءً على ذلك، فإن **مسّ العذاب هو السبب، ومرافقة الشيطان في هذا العذاب هي النتيجة المترتبة عليه.**

وقد يكون مس العذاب المقصود به العاجل في الدنيا ، فيكون خوفه عليه بغرض إظهار المزيد من الشفقة ، كما قال الشاعر : – فقسا ليزدجروا ومن يك حازما ... فليقس أحياناً على من يرحم

[1]) تفسير أبي السعود ج4 ص 314
[2]) رواه البخاري ج8 ص 102
[3]) تفسير الألوسي ج11 ص 500

أي أن إبراهيم أنذر أباه العذاب العاجل في الدنيا قبل الآخرة ، لأنه يتمنى أن يترك عبادة الشيطان ، ويدخل في ولاية الرحمن ، والمعنى أن من لم يزدجر من مس العذاب الدنيوي العاجل ، فإنه يسير في طريق عبادة الشيطان حتى يصير ملازما له في العذاب الأخروي وقرينه

وكذلك قد تكون الولاية المقصودة هو الطاعة والمتابعة ، كما في قوله سبحانه (وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف/36) ، وذلك حين لا يرتدع مما يمسه من العذاب العاجل ، ويستكمل طريقه لغواية الشيطان ، فتكون ولايته للشيطان نتيجة للإعراض عن القرآن ، وتكون الولاية هي ذاتها عذاب من الرحمن ، قال تعالى (وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاء قَرِينًا) (النساء/38)

قال الرازي ترتيب ولاية الشيطان عقب ذكر عذاب الرحمن أن ذلك (يقتضي أن تكون ولاية الشيطان أسوأ حالاً من العذاب نفسه وأعظم ، فما السبب لذلك . «والجواب» : أن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب على ما قال (ورضوان مّنَ الله أَكْبَرُ ذلك هُوَ الفوز العظيم) [التوبة : 72] فوجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم)[1].

في قوله تعالى حكايةً عن خليله إبراهيم عليه السلام وهو يناجي أباه برفقٍ وشفقة :﴿يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾(مريم: 45)،يبدو حرص إبراهيم على هداية أبيه ؛ إذ أدركته عليه السلام رعدةُ الخوف أن يناله طائفٌ من عذاب الله أو يحلَّ به سخطه، في الدنيا قبل الآخرة، فيؤول مصيره إلى الملازمة الأبدية للشيطان في دركات الجحيم.

وقد أجاد الألوسي في تفسيره (روح المعاني) حين حرّر هذا المعنى بقوله" :الولاية للشيطان بهذا المعنى إنما تترتب على مسِّ العذاب"[2]. ومراده أن الولاية هنا ليست ولاية الطاعة والانقياد في المعصية؛ لأن أباه كان واقعاً فيها بالفعل، وإنما هي ولاية المقارنة والمرافقة في العقوبة والمصير؛ فيكون مسُّ العذاب سبباً، وتغدو صحبة الشيطان في النار نتيجةً حتميةً مترتبةً عليه.

كما يحتمل مسُّ العذاب ها هنا العقوبة العاجلة في الدنيا؛ فيكون إنذار إبراهيم لأبيه نابعاً من فرط الشفقة وصدق النصح، مصداقاً لقول أبي تمام:

فَقَسا لِيَزدَجِروا وَمَن يَكُ حازِماً ... فَلْيَقسُ أَحياناً عَلى مَن يَرحَمُ

فإنما لوّح له بالعذاب الدنيوي العاجل رجاء أن يثوب إلى رشده، ويخلع ربقة عبادة الشيطان، ليدخل في كنف الرحمن وولايته؛ إذ إن من لم يرتدع بمسِّ البلاء العاجل، تمادى في غيّه وسلك سبيل الشيطان حتى يغدو قرينه الملازم له في العذاب الأخروي. وهذا المعنى يعضده قول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ)متفق عليه، فالإمهال والابتلاء العاجل فرصةٌ للرجوع قبل حلول الأخذ الأليم.

---

[1]) تفسير الرازي ج10 ص 315
[2]) تفسير الألوسي ج11 ص 500

ومن وجهٍ آخر، قد تُحمل الولاية على الطاعة والمتابعة والاستحواذ؛ وذلك حين يعمى القلب عن ذكر الله فلا يتعظ بالعذاب العاجل، فيستمرئ الغواية حتى يسلط الله عليه شيطاناً يلازمه ويقوده إلى الهلاك، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ الزخرف: 36]. وحينئذٍ تصبح هذه الولاية والقرانة الشيطانية في ذاتها لوناً من أشد العذاب النفسي والروحي من الرحمن، كما قال جل وعلا :﴿وَمَن يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾ النساء: 38]، وقد أشار ابن كثير في تفسيره إلى هذا المعنى الدقيق، مبيّناً أن إبراهيم خاف على أبيه إن أصرّ على شركه أن يلقى الله فيكون للشيطان ولياً وقريناً لا ينفك عنه، ولا ناصر له من دون الله.

ويلفت الإمام الفخر الرازي في (مفاتيح الغيب) الانتباه إلى سرٍ بلاغيٍ بديع في ترتيب ولاية الشيطان عقب ذكر عذاب الرحمن؛ إذ يقرر أن هذا الترتيب يقتضي أن تكون ولاية الشيطان أشدَّ هولاً وأعظم وطأةً من العذاب نفسه! ويعلل ذلك بقوله" :إن رضوان الله تعالى أعظم من الثواب، على ما قال: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: 72]، فوجب أن تكون ولاية الشيطان التي هي في مقابلة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم ."[1]فكما أن القرب من الرحمن ورضوانه نعيمٌ يفوق نعيم الجنة الحسي، فكذلك الطرد عن بابه والوقوع في أسر الشيطان ومرافقته عذابٌ معنويٌّ يفوق في مرارته سائر العذاب.

في قوله تعالى :﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ مريم: 46]، لم يكن ردُّ فعل والد إبراهيم عليه السلام على قدر اللطف والأدب الرفيع الذي خاطبه به ابنه؛ إذ قابله بسؤال المستنكرِ الغاضب، ثم تجاوز ذلك سريعًا إلى التهديد والوعيد ليحمله على ترك دينه، بل توعّده بالقتل رجماً بالحجارة؛ لتكون عقوبةً مؤلمةً رادعةً له إن لم يكفَّ عن نصحه ودعوته إلى التوحيد، ثم ختم تهديده بأمره بهجرانه والابتعاد عنه دهرًا طويلاً.

وقد بيّن المفسرون أبعاد هذا التهديد القاسي؛ **قال الإمام الطبري** في تفسير قوله: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾: أي "أمعرضٌ أنت عن عبادة آلهتي وتاركها؟"، ثم بيّن **الإمام ابن كثير** معنى الوعيد بقوله: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: أي "لئن لم تنتهِ عن عيب آلهتي وسبّها لأقتلنّك رميًا بالحجارة"، وقيل: لأشتمنّك بالقول القبيح، وكلاهما يجمع القسوة والغِلظة. أما قوله: ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾، **فعن ابن عباس رضي الله عنهما** قال: "اجتنبني سالمًا قبل أن يصيبك مني عقوبة"[2]، وقال مجاهد: "مليًّا: أي دهرًا طويلاً."

وهكذا سلك أبوه آزر طريق الجفاء والقطيعة مع إبراهيم عليه السلام، رغم ما لمسه من ابنه من برٍ وحنانٍ وشفقةٍ وهو على الشرك؛ فقابل الإحسان بالإساءة، واللين بالقسوة، والنصح بالترهيب، ليعطي القرآن الكريم بذلك صورةً حيّةً لصبر الدعاة في سبيل الله، وثباتهم أمام أذى الأقربين.

قوله تعالى :﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(مريم: 47)؛ في هذا المقام الجليل لم يُقابل نبي الله إبراهيم عليه السلام جفاء أبيه بالجفاء، ولا قسوته بالغلظة، ولا تهديده بالرجم والهجر بمثله، بل قابله بأعلى درجات الحِلم والأدب النبوي. فقد بادر إلى إلقاء سلام المتاركة والموادعة.

---

[1]) تفسير الفخر الرازي ج1 ص 2988
[2]) تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 264

ووعده بالاستغفار وطلب الهداية له قبل أن يُنهى عن الاستغفار للمشركين ، كما في قوله (وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ) (التوبة 114) .

وقد قرّر أئمة التفسير من أهل السنة هذا المعنى، قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية، أي: (أما أنا فلا ينالك مني مكروه ولا أذى، ولكن سأسأل الله لك أن يهديك ويغفر ذنبك) .

وقال الإمام الطبري في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ أي: "أَمَنَةٌ مني لك أن أُكافئك على قبيح قولك، أو أُبادئك بمكروه"، وهذا يُبيّن أن سلامه عليه السلام كان سلام متاركةٍ وكفٍّ للأذى، لا سلام تحيةٍ وإقرارٍ على الكفر؛ إذ لا يُبدأ المشرك بالسلام ابتداءً، وإنما هو كقوله تعالى في وصف عباد الرحمن :﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان 63) .

وهكذا ينبغي أن يكون المسلم صاحب الدعوة؛ لا يقابل الإساءة بالإساءة، بل يدفع بالتي هي أحسن، مصداقًا لقوله تعالى :﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: 34). فأصحاب الدعوة الصادقون لا يلتفتون إلى ما يلقونه من أذى في سبيل الله، ولا يشغلهم الانتصار لأنفسهم عن غايتهم الكبرى، بل يترأفون بالمدعوّين ويشفقون عليهم رجاء هدايتهم وإنقاذهم من النار.

ويتأكد هذا الخُلق العظيم ويشتد وجوبه إذا كان المدعوّ من الوالدين أو ذوي الأرحام؛ فإن حق الوالدين عظيم وإن كانا مشركين، وغاية المسلم معهما أن يبرّهما ويصل رحمهما بالمعروف دون طاعتهما في معصية الخالق، كما قال سبحانه ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (لقمان: 15). وقد تجلّى هذا الأصل الشرعي في السنة النبوية المطهرة؛ فعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ قُرَيْشٍ إِذْ عَاهَدُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمُدَّتِهِمْ مَعَ أَبِيهَا فَاسْتَفْتَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أُمِّي قَدِمَتْ عَلَيَّ وَهِيَ رَاغِبَةٌ أَفَأَصِلُهَا قَالَ نَعَمْ صِلِيهَا)[1].

وفي قوله ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ قال ابن عباس وغيره: "لطيفًا"، أي: (في أن هداني لعبادته والإخلاص له)[2] ، حيث أظهر ثقته ويقينه بربه سبحانه بأن يجيب دعاءه، فالله تعالى لطيفٌ به، بَرٌّ رحيمٌ يُكرمه ولا يردُّ سؤاله.

وحفاوة الله بعباده ولطفه بهم عامة ، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ ۖ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: 19]، وهي صيغة عامة تشمل كل عباده.

والحفاوة قد تترادف مع المعية ، فتكون خاصة للمؤمنين .قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]، وهذه المعية تقتضي الحفظ، والتأييد، والكلاءة.

كما تعني القرب كناية عن سرعة إجابة الدعاء ، فمن مظاهر الحفاوة الإلهية أن الله يقترب من عبده إذا دعاه ويجيب مسألته دون واسطة، كما قال المفسرون في تفسير "حفياً" أي مجيباً لدعائي ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186) ، لاسيما حال الاضطرار .قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾(النمل: 62)

---

[1]) رواه البخاري ج10 ص 451 رقم 2946

2) أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم ج9ص264 ابن كثير ج5 ص 236 - وانظر : الدر المنثور ج6 ص 466

ومن مظاهر احتفاء الله بعبده فرحه به إذا عاد إليه تائباً، فيفرح بتوبته فرحاً يليق بجلاله، ويبدل سيئاته حسنات. كما في الحديث .قال النبي ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ، مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ...» متفق عليه.

ويتجلى هذا الفرح وتلك الحفاوة بأن يبدل الله سيئات التائب حسنات .قال تعالى في وصف عباد الرحمن التائبين: ﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الفرقان: 70).

وهكذا يستبين أن الحفاوة متبادلة بين العبد وربه فهو يتودد إلى الله بالطاعات ، وهو يحتفي بهم بالقبول ، قال الله تعالى في الحديث القدسي: «مَن تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، ومَن تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وإذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً» رواه البخاري.

في الحديث القدسي: «...وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ...» رواه البخاري.

ومن علامات حفاوة الله بعباده المؤمنين أن يتولى الله الدفاع عنهم لاسيما في الشدائد . قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ (الحج: 38). ومن هنا تصير الحفاوة إلى ولاية ، فيخرجهم برعايته من الظلمات إلى النور ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (البقرة: 257).

وفي الأخير تتجلى مظاهر الاحتفاء بالعباد في الآخرة وعند الموت، حيث تتنزل عليهم الملائكة بالبشرى، ويستقبلهم الله بالكرامة في الجنة.

- فعند الاحتضار تبشر الملائكة قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: 30)
- وعند لقاء الله يستقبلهم الله في ضيافته ليدخلهم الجنة .قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: 107]، والنُّزُل هو ما يُعدّ للضيف المكرم عند قدومه احتفاءً به.

قوله (وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ..) (48) اشتد الخلاف بين نبي الله إبراهيم –عليه السلام– وبين أبيه وقومه، وبلغ الخصام مداه حتى ألقوه في النار ليحرقوه، لولا أن تداركته عناية الله فجعلها بردًا وسلامًا عليه. وعندما وصل الأمر إلى هذا الحد، أدرك إبراهيم أن الوقت قد حان لمفارقتهم، والنأي بنفسه عن شركهم وضلالهم. وقد أوضح الإمام الشنقيطي هذا المعنى بقوله: (اعتزاله إياهم هو مجانبته لهم، وفراره منهم بدينه)[1] .

والأصل في منهج المسلم ألا يغادر ميدان الدعوة والإصلاح وإن ناله أذى الناس، مصداقًا لقول النبي ﷺ: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم، أعظم أجرًا من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[2]؛ فالمؤمن يعيش بين الناس ليؤثر فيهم لا ليتأثر بهم، يخالطهم بجسده، بينما يظل قلبه وروحه وفكره معلقًا بربه، يعاملهم بالحسنى

[1]) رواه ابن ماجة ج12 ص 39 رقم 4022 وصححه الألباني صحيح ابن ماجة ج2 ص 373 رقم 3257 صحيح الأدب المفرد للبخاري ج1 ص 162 رقم 388
[2]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج2 ص 217

ويتحمل أذاهم، ويشاركهم شؤون حياتهم مع تنزهه التام عن مفاسدهم. غير أن اعتزال إبراهيم –عليه السلام– كان من باب هجر المنكر ومفارقة أهل الجهل بعد أن ضاقت به السبل وبلغ الكيد منه مبلغه بمحاولة قتله.

وعلى هذا النهج سار فتية الكهف حين قال الله تعالى على ألسنتهم :﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾(الكهف: 16). وكذلك كان شأن النبي ﷺ حين اعتزل أهل مكة وهاجر إلى المدينة المنورة بعد أن اشتد إيذاؤهم له؛ فقد كان اعتزاله فرارًا بدينه من دار الكفر، ثم ما لبث أن عاد إليها فاتحًا منتصرًا.

ومن هنا، تتجلى قيمة العزلة المؤقتة بوصفها ملاذًا محمودًا لإصلاح النفس وتجديد العزم. وقد سُئل بعض الحكماء عما يبتغيه أهل الخلوة باختيارهم العزلة، فأجاب: «يستدعون بذلك دوام الفكرة، وتثبيت العلوم في قلوبهم؛ ليحيوا حياة طيبة ويذوقوا حلاوة المعرفة». وقيل لآخر: «ما أصبرك على الوحدة!»، فقال: «ما أنا وحدي؛ أنا جليس الله تعالى، إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه، وإذا شئت أن أناجيه صليت». وكان الفضيل بن عياض –رحمه الله– يقول: «إذا رأيت الليل مقبلًا فرحت وقلت: أخلو بربي، وإذا رأيت الصبح قد أدركني استرجعت؛ كراهية لقاء الناس، وأن يجيئني من يشغلني عن ربي) [1].

قوله (وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا) (48) نلمس كيف استأنس نبي الله إبراهيم عليه السلام بمعية ربه في وحشة العزلة، فكان الدعاء أول ملاذٍ لجأ إليه حين همّ باعتزال قومه. وقد تضرع إلى الله أن يهيئ له ولذريته مستقراً تأوي إليه قلوب الناس؛ ليبدد عنهم وحشة الغربة، وأن يفيض عليهم من سعة رزقه، وهو ما تجلى في مناجاته الخالدة (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) (إبراهيم 37) .

ولم يخيّب الله رجاء خليله، بل قابل صدق التجائه باستجابةٍ كريمَةٍ أشار إليها البيان الإلهي بقوله (وَهَبْنَا لَهُ) (مريم49)، ثم أتمّ نعمته بأن أفاض البركة على عقبه وذريته أجمعين بقوله سبحانه (وَوَهَبْنَا لَهُم)(مريم50).

قوله (فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا) (50) تأكيدًا على معنى العزلة يتضح أنها كانت ذات شقين ، فهي عزلتان ، عزلة قلبية حيث عزل قلبه عن الكفر ، وعزلة بدنية حيث تركهم وذهب بعيدا عنهم ، امتثالا لقوله تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا) (النساء/140)

ولما آثر إبراهيمُ عليه السلام رضا ربّه على أهله ووطنه، أجزل الله له العطاء، وعوَّضه خيراً مما ترك؛ فبارك في عَقِبه، واصطفى من ذريته الأنبياء، وجعل لهم ذِكراً حسناً وثناءً عاطراً في العالمين. وهذا مصداقُ القاعدة الإيمانية التي عبَّر عنها قتادة بقوله (لا يقدر رجل على حرام ثم يدعه ليس به إلا مخافة الله إلا **أبدله الله في عاجل الدنيا قبل الآخرة ما هو خير له من ذلك**)[2]

1) الدكتور : هاشم علي الأهدل : التربية الذاتية في القرآن ص 110 ، المفصل في شرح لا إكراه في الدين ج2 ص 222
2) جمع الجوامع للسيوطي ج1 ص 19643 رقم 2064 (أخرجه ابن جرير عن قتادة مرسلاً)

وهذا المعنى الجليل هو ما أرشد إليه النبي ﷺ أُمَّتَه عند نزول البلاء وفقدان المحبوب، حيث علَّمهم أن يلوذوا بالله طالبين الخَلَف والأجر، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ " إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ " **اللَّهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا)**[1].

وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِذَا أَصَابَتْ أَحَدَكُمْ مُصِيبَةٌ فَلْيَقُلْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ **اللَّهُمَّ عِنْدَكَ أَحْتَسِبُ مُصِيبَتِي فَآجِرْنِي فِيهَا وَأَبْدِلْ لِي بِهَا خَيْرًا مِنْهَا)**[2]

ولم يقتصر العطاء الإلهي لإبراهيم وذريته على شرف النبوة فحسب، بل امتدَّ ليشمل سَعة الرزق والأمان؛ إذ جعل الله لهم حرماً آمناً تُجبى إليه ثمرات كل شيء فضلاً منه ورحمة، كما امتنَّ سبحانه بقوله (**أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِن لَّدُنَّا)** (القصص/57)

وقد أدرك الصحابة الكرام هذا الميزان الدقيق حين استقر الإيمان في قلوبهم؛ فلم تكن الدنيا غايةً يلهثون وراءها، بل اتخذوها مطيَّةً للآخرة وزاداً يتقوَّون به على الطاعة والجهاد في سبيل الله. ويتجلى هذا السموُّ في موقف عمرو بن العاص رضي الله عنه حين قال قال : بعث إليَّ النبي ﷺ فأمرني أن آخذ على ثيابي وسلاحي ثم آتيه ففعلت فأتيته وهو يتوضأ فصعد إلى البصر ثم طأطأ ثم قال يا عمرو إني أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله وأزعب لك زعبة من المال صالحة قلت **إني لم أسلم رغبة في المال إنما أسلمت رغبة في الإسلام** فأكون مع رسول الله ﷺ فقال يا عمرو **نعم المال الصالح للمرء الصالح)** [3].

كذلك امتد عطاء الله ليجعل سيرته عطرة على ألسنة الناس ، فعن ابن عباس في قوله (وجعلنا لهم لسان صدق عليا) المراد به (**الثناء الحسن**)[4] ، وقال الواحدي (ثناءً حسناً رفيعاً في كلِّ أهل الأديان)[5] ، و(هذا إنعام آخر مقابل الهجرة في سبيل الله)[6]، قال ابن القيم (**فلما كان الصدق باللسان** وهو محله أطلق الله سبحانه ألسنة العباد بالثناء على الصادق جزاء وفاقا وعبر به عنه)[7].

---

[1]) رواه مسلم ج4 ص 475 رقم 1525
[2]) رواه أبو داود ج8 ص 381 رقم 2712 وصححه الألباني ج صحيح وضعيف سنن أبي داود ج7 ص 119 رقم 3119 ، وصحيح ابن ماجة 1598
[3]) رواه البخاري في الأدب المفرود ج1 ص 112 رقم 299 وصححه الألباني : صحيح الأدب المفرد ج1 ص127 رقم 299
[4]) الدر المنثور ج6 ص 466 ، تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 265
[5]) الوجيز للواحدي ج1 ص 492
[6]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 414
[7]) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 23

المحور الرابع
المنعم عليهم

قال تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) (58)

ذكر الله من المنعم عليهم ثلاثة عشر صديقا ونبيا في هذه السورة (زكريا – يحي – مريم – عيسى – إبراهيم – اسحق – يعقوب– موسى – هارون – إسماعيل – إدريس– أدم – نوح) ، وقد مضى الحديث عنهم إلا ستة ، وهم الباقين كالتالي :-

قوله (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا)(52) ذكر الله سبحانه نبيه موسى هنا بخمس صفات (مخلصا ،ورسولا نبيا ،وباعتباره منادى ،ومقربا ،ومنجي بالوحي) ، ثم ذكره الله بوصفه موهوبا له أخاه هارون نبيا ، ما يعني أنهما ذكرا في هذا المقام باعتبارهما أخوان يعضد بعضهما بعضا ، يقول النبي ﷺ (سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمْ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ..**وذكر منهم وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ**)[1]، فنبي الله موسى وهارون ارتبطا ببعضهما البعض بقوة الأخوة النسبية ، وكذلك برابطة الدين ، وأخوة الدين أقوى من عرى النسب .

في قوله تعالى :﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ (مريم: 52)، يتجلّى الإعجاز البياني في تحديد المكان والجهة معًا؛ فقد صرّح الحق سبحانه باسم الجبل «الطور» إشعارًا بقدسية هذا الموضع الذي شهد شرف النداء الإلهي والتجلّي الرباني، ولو وقع هذا الحدث الجليل في بقعة أخرى من الأرض لنالَت شرف الذكر والتسمية، والله أعلم بحكمته. أما تخصيص النداء بالجانب «الأيمن»؛ فقد ذهب المفسرون كالطبري وابن كثير إلى أنه يمين موسى عليه السلام حين أقبل من مدين، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى بركة التيمن الذي هو سُنّة الأنبياء جميعًا، وشعار أهل الجنة، فضلًا عن كونه مظهرًا من مظاهر التكريم والتشريف في حضرة من كلتا يديه سبحانه يمين مباركة.





[1]) رواه البخاري ج3 ص 51 رقم 620

وقد جاء هذا النداء الإلهي وموسى عليه السلام في خلوة تامة وعزلة عن الخلق بأمر ربه، ليتأهل قلبه لتلقي أنوار الوحي. وهنا تبرز قاعدة تربوية عظيمة يقررها القرآن الكريم في قصص الأنبياء؛ وهي أن الخلوة الصادقة مع الله هي مِفتاح الفتوحات الربانية. فكما أينعت ثمار الاصطفاء في محراب زكريا، وتجلّت الكرامات في محراب مريم، وتحقق اليقين في عزلة إبراهيم عليه السلام، تكرر المشهد ذاته مع موسى عليه السلام في عزلة الطور؛ ليكون ذلك تمهيدًا لأعظم منقبة اختُصَّ بها، وهي تكليم الله له بلا واسطة، كما قال تعالى :﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ﴾(البقرة: 253).

في قوله سبحانه :﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ (52) يرتقي البيان القرآني إلى ذروة التكريم؛ أي قرّبناه تقريب تشريف ومكانة، لا تقريب مسافة، ليكون مناجيًا لربه. فإن قيل: كيف يُسمّى كلام الله لموسى مناجاة، والمناجاة في اللغة هي المسارّة وخفض الصوت؟ يجيب أهل العلم والتفسير كالقرطبي والرازي: أن الله تعالى أسمع كلامه لموسى وحده، وحجبه عن سمع من سواه .

قال الشعراوي (هذه خصوصية لموسى عليه السلام ، فكلام الله لموسى خاصٌّ به وحده لا يسمعه أحد غيره ، أسمعه موسى ، وأخفاه عن غيره ، فصار مناجاة كما يتناجى اثنان سِراً . وهذا من طلاقة قدرته تعالى أن يُسمع هذا ، ولا يُسمع ذاك)[1] .

ولم يبلغ موسى عليه السلام هذه المنزلة الرفيعة مصادفة، وإنما استحقها بصدق مجاهدته، وصفاء عبوديته، وعزوفه عن زينة الدنيا؛ فقد نشأ وترعرع في قصر فرعون حيث الترف والملك والفتن، فظل قلبه معلقًا بالملأ الأعلى، معرضًا عما في أيدي الناس. وفي هذا المعنى التربوي العميق يقول النبي ﷺ (**الْعِبَادَةُ فِي الْهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**) [2] ؛ وقد بيّن الإمام السيوطي المراد بقوله: (الهرج: أي الفتنة واختلاط أمور الناس)[3]، (فمن تشاغل بالعبادة في تلك الحال كان متشاغلًا بما أُمر بالتشاغل به، تاركًا لما قد تشاغل به غيره من الهرج المنهي عن الدخول فيه) [4].

وهنا تتجلى صورة فريدة من صور العزلة التربوية؛ وهي «**عزلة القلب وسط الزحام**»، التي يعبر عنها العلماء بقولهم: «الكائن مع الخلق بجسده، البائن عنهم بقلبه». فلم تكن عزلة موسى في شبابه عزلة أبدان وهروبًا من الواقع، بل كانت عزلة روح وقلب؛ فلم تزده الإقامة بين جدران قصر الطاغية إلا أنسًا بالله، ورحابة في جنابه، حتى صار في قلب قصر فرعون عبدٌ يُقرّبه الله ويناجيه، حيث لا يخطر ذلك على بال بشر.

إن هذه القصة القرآنية ترسم للمؤمن منهجًا تربويًا واضحًا: وهو أن القرب من الله لا يُنال بالأماني، وإنما يُدرك بصدق الإقبال، ومجاهدة النفس، وإعمار الخلوات بالعبادة؛ مصداقًا لقوله تعالى في الحديث القدسي» :وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ) [5] ، وقوله سبحانه في الحديث القدسي الآخر (وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، **وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ**)[6]؛ فإذا أحب الله عبدًا، أدناه وقربه، وجعل له من لدنه نورًا واصطفاءً.

---

[1]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5568
[2]) رواه مسلم ج14 ص 187 رقم 5242
[3]) الديباج على مسلم ج6 س 267
[4]) المعتصر من المختصر من مشكل الآثار ج2 ص 238
[5]) رواه البخاري ج22 ص 409 رقم 6856
[6]) رواه البخاري ج20 ص 158 رقم 6021

قوله (وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا) (53) تتجلى قيمة المؤازرة والأخوة الإيمانية؛ إذ أفاض الله من فيض رحمته على كليمه موسى عليه السلام، فوهبه أخاه هارون نبيًّا، ليكون له عونًا وسندًا وعضدًا في حمل أمانة الرسالة وتبليغ الدعوة.

إن أعظم مظاهر الأخوة الصادقة أن يشدَّ الأخ أزر أخيه ، فيقف معه ضد طاغية مثل فرعون ، وأن يكونا كالجسد الواحد والبنيان المتراصّ؛ وقد صوَّر النبي ﷺ هذا التلاحم الإيماني بأبلغ بيان فقال (**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**» وَشَبَّكَ أَصَابِعَهُ) [1]. وبهذه المِنَّة الإلهية، غدا موسى وهارون عليهما السلام ظهيرين متعاضدين، يأنس أحدهما بالآخر في وحشة الغربة، ويستقوي به في ميدان المواجهة العاتية أمام طغيان فرعون وملئه، مصداقًا لقوله تعالى في سورة القصص :﴿**سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ** وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ (القصص35).

قال الإمام ابن كثير في تفسير الآية، أي: "أجبنا سؤاله في أخيه فجعلناه نبيًّا معه كما سأل"، وقال العلامة السعدي " فإن الله من رحمته بموسى عليه السلام، أن أجاب سؤاله، وأشرك أخاه هارون في أمره، ليعينه ويساعده على طاعة ربه . وهنا تتجلى قاعدةٌ تربويةٌ ودعويةٌ خالدة، وهي أن العمل الجماعي والتكامل بين الدعاة والمصلحين سنةٌ ربانيةٌ لتخفيف أعباء الطريق ومضاعفة الأثر.

وهكذا تتوالى نفحات الرحمة الإلهية على صفوة الخلق وأهل الإيمان، حين يقيّض الله لهم في منعطفات الحياة ومشاق الدعوة بطانةً صالحةً وأنصارًا أوفياء يخففون عنهم وطأة الطريق:

ففي سيرة سيد المرسلين ﷺ سخَّر الله له الصدِّيق أبا بكر رضي الله عنه؛ فكان له السند والمصدِّق حين كذَّبه الناس، والمواسي حين جفاه القوم، والصاحب في الغار، والخليفة الراشد من بعده.

وفي قصة نبي الله زكريا عليه السلام :استجاب الله دعاءه حين خاف انقطاع أثر الدعوة من بعده، فوهبه ابنه يحيى عليه السلام؛ ليكون وارثًا للنبوة وحاملًا للواء الرسالة.

وفي قصة الصدِّيقة مريم عليها السلام :أيدها الله بابنها عيسى عليه السلام؛ فأنطقه في المهد ليكون لها برهانًا ساطعًا، ومدافعًا بليغًا يبرِّئ ساحتها، وناصرًا يشدُّ أزرها.

وقد خَّص النبي ﷺ هذه السنة الإلهية في اصطفاء الأعوان للأنبياء بقوله (إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا)[2]؛وقد أوضح الإمام المناوي دلالة هذا اللفظ بقوله أي: "وزيرًا، أو ناصرًا، أو خليلًا يختص به ويخلص له" [3] .

مما تقدم نتعلم أن البحث عن الصاحب الصالح، وبناء جسور الأخوة في الله، والتعاون على البر والتقوى، ليست مجرد فضائل أخلاقية، بل هي من أعظم أسباب الثبات والنجاح في الحياة؛ فالمؤمن قليلٌ بنفسه، كثيرٌ بإخوانه.

قوله تعالى (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا] (54) يتجلى العوض الإلهي ثمرة التسليم المطلق ، فتكون المكافأة جبرا للوحشة وكسرا للعزلة بعد أن فارق الخليل إبراهيم عليه السلام قومه وأباه في سبيل الله، فلم يتركه ربه لألم الغربة؛ بل آنس وحدته، وجبر خاطره، فوهبه إسماعيل عليه السلام ليكون له عوناً وسنداً وامتداداً للرسالة.

قال الإمام ابن كثير في وصفه بـ "صادق الوعد" (وذلك لأنه ما وعد شيئاً إلا وفى به؛ ومن أعظم ذلك أنه وعد أباه أن يصبر على ذبحه فوفى بذلك، واستسلم لأمر الله)[4] .

---

[1]) رواه البخاري ج2 ص 289 رقم 459
[2]) رواه البخاري ج9 ص 443 رقم 2634
[3]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 694

فقد نشأ إسماعيل في كنف أبيه إبراهيم على الرضا والتسليم ، وقد سَلَّما أمرهما لله، فتشرّبت روحه معاني الطاعة المطلقة. وحين جاء الابتلاء الأعظم، تجلّى صدق الوعد في أبهى صوره؛ إذ لم يتردد الابن البارّ حين قال لأبيه (يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ) (الصافات 102) لقد قطع إسماعيل على نفسه عهداً بالصبر على الذبح، فوفى بعهده عملاً لا قولاً؛ وحين أسلما أمرهما لله واستسلما لقضائه، وتلَّ الأبُ ابنه للجبين، جاء الفرج الإلهي والرحمة الربانية بالفداء العظيم :(وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ)(الصافات 107) .

وفي قوله (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا)(55). يتجلى مفهوم القيادة الأسرية الرشيدة وبناء البيت المسلم ، وذلك ينبثق من ركيزة قوامة الرجل ، ومفهوم تلك القوامة ، وهي نعمةٍ عظيمة امتنَّ الله بها على إسماعيل ؛ إذ جعله إماماً لأهله في الخير، وقائداً لهم للنجاة. وهنا يبرز إسماعيل عليه السلام في صورة قدوة للزوج الصالح والأب المربي الذي يدرك أن مسؤوليته تجاه أسرته تتجاوز توفير المتاع الدنيوي الفاني إلى تأمين نجاتهم في الآخرة.

فلم يضيع كثير من الأوقات للاستمتاع بالدنيا مع أهله ، ولم يخص إسماعيل معهم في ملذات العيش، بل جعل أولويته الكبرى تزكية نفوسهم وربط قلوبهم بالخالق؛ فكان يأمرهم بـ الصلاة التي هي صلة العبد بربه وتطهير لروحه ، ويحثهم على الزكاة التي هي إحسان للخلق وتطهير للمال والنفس من الشح ، فحقق بذلك الموازنة بين الروح والمادة.

ونظير ذلك قول الله تعالى مخاطباً نبيه وأمته :(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (طه 132)، وقوله سبحانه (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا) (التحريم 6)

وهذا المنهج التربوي الفريد الذي سار عليه إسماعيل عليه السلام هو ذاته منهج خاتم الأنبياء محمد ﷺ في بيته؛ فقد كان أشد الناس حرصاً على إيقاظ هم أهله للآخرة، وتذكيرهم بالله في كل حين ، فعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ اسْتَيْقَظَ لَيْلَةً فَقَالَ (سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفِتْنَةِ؟ مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الْخَزَائِنِ؟ مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الْحُجُرَاتِ؟ يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٌ فِي الْآخِرَةِ) [1] ، أشار ابن حجر إلى أن القصد من صيغة الاستفهام (التحريض على إيقاظهن ، يريد أزواجه لكي يصلين)[2]، يعنى (من يوقظهن للصلاة بالليل ، وهذا يدل أن الصلاة تنجى من شر الفتن ، ويُعتصم بها من المحن)[3].

وعن عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَام لَيْلَةً فَقَالَ أَلَا تُصَلِّيَانِ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا فَانْصَرَفَ حِينَ قُلْنَا ذَلِكَ وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُوَلٍّ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَهُوَ يَقُولُ (وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا)[4]

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ فَإِذَا أَوْتَرَ قَالَ قُومِي فَأَوْتِرِي يَا عَائِشَةُ)[5]، فهو يأمرها لينتشلها من الكسل ، مع اقتناعها الكامل بأهمية صلاة الوتر. خلافا لمن لا يزال يتدرب على المحافظة على الصلاة ، فهذا يتعين تحقيق مزيد من الرفق معه .

---

[4]) تفسير ابن كثير ، البحر المحيط لابن حيان

[1] رواه الترمذي ج8 ص 121 رقم 2122 ورواه البخاري

[2]) فتحر الباري ج13 ص 22

[3]) شرح صحيح البخاري لابن بطال ج3 ص 116

[4]) رواه البخاري ج4 ص 288 رقم 1059

وتتجلى ثمرة الرضا الإلهي في قوله (وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا) لأن إسماعيل أصلح بيته وأقام فيه شرع الله، فجزاه الله من جنس عمله؛ فأرضاه في أهله، ورفعه عنده مكاناً علياً، فاستحق وسام الشرف الإلهي

يقول الإمام السعدي" :وهذا من كماله عليه السلام، أنه لم يقتصر على تزكية نفسه، بل سعي لتزكية أهله، فأمرهم بأفضل الأعمال وهي الصلاة والزكاة؛ فمن قام بحق الله وحق أهله، كان عند ربه مرضياً "[1]

إن المحبة الصادقة للأهل لا تكتمل إلا بالسعي الحثيث لجمعهم في الجنة؛ فالأب أو الزوج الذي يوقظ أهله لصلاة الفجر، ويذكرهم بالصدقة والقرآن، هو في الحقيقة يبني حصناً منيعاً يحمي أسرته من الفتن، ويستجلب لبيته البركة والرضا من الله.

مما تقدم نتعلم أن جبر العزلة يكون –في الأصل– بأن يهب الله للمسلم ذريةٍ صالحة، ويعينه علي بناء البيت على الطاعة والقدوة الحسنة؛ إذ تتجلّى في هذه الآيات الكريمات سنن الله التربوية في مكافأة الصابرين، وترسم ملامح القيادة الأسرية الرشيدة التي تجعل من البيت محضناً للإيمان وملاذاً للسكينة.

قوله (وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا) (57) ذكر إدريس في خضم ذكر المنعم عليهم من المهتدين ، وكل من ذكروا من قبل كانوا مذكورين بصفتهم كأفراد في أسرة ، أي بصفته كأب ، ابن ، ابنة ، جد ، أخوان ، زوج ، لكن ولأن المجتمع المسلم يتكون من أفراد وأسر ، فلعل من المناسب أن يذكر السياق هنا نبي الله (إدريس) كفرد وليس كعضو في أسرة ، ليستبين بذلك فريق المنعم عليهم والذين يشار إليهم كذلك في سورة الفاتحة .

وقد أنعم الله على إدريس برفعة المكانة[2]، قال الرازي (اعلم أن الله تعالى إنما مدحه بأن رفعه إلى السماء لأنه جرت العادة أن لا يرفع إليها إلا من كان عظيم القدر والمنزلة)[3].

وقد ذكر مع الصابرين في قوله ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ (الأنبياء: 85-86) .

وروي عن إدريس كثير [4] مما لم يثبت [5]. وقيل أنه جاء قبل نوح ، فكان إدريس عليه السلام (نبياً) ولم يُقُلْ : (رسولاً نبياً) ، (لأن بينه وبين آدم عليه السلام جيلين ، فكانت الرسالة لآدم ما زالت قائمة)[6].

---

[5]) رواه مسلم ج4 ص 98 رقم 1228

[1]) تيسير الكريم الرحمن

2) ويقول بعض الباحثين في الآثار المصرية ، أن إدريس تعريب لكلمة « أوزريس » المصرية القديمة . . وأنه هو الذي صيغت حوله أساطير كثيرة . فهم يعتقدون أنه صعد إلى السماء وصار له فيها عرش عظيم .

قال القطان (وقد نُسجت حول إدريس خرافات وأساطير ، ونُسب إليه انه مصدر لجميع العلوم ، واول من خطَّ بالقلم ، وأولُ من بنى الهاكل ومجّد الله فيها ، واول من نظر في علم الطب ، وألّف لأهلِ زمانه قصائد موزونة في الأشياءِ الأرضية والسماوية ، وغير ذلك كثير جدا . وكلّها أخبار لم تؤيد بنقل صحيح ، ولم يسنِدها نصٌّ قاطع ، ومن أراد الاطّلاع عليها فعليه الرجوعُ الى كتاب : قصص الانبياء ، للمرحوم عبد الوهاب النجار) تفسير القطان ج2 ص 398 .

[3]) مفاتيح الغيب ج21 ص 199

[4]) نقل ابن عاشور في التحرير والتنوير ج16 ص 57 (ففي الإصحاح الخامس من سفر التكوين وسار أخنوخ مع الله. قيل: هو أول من وضع للبشر عمارة المدن، وقواعد العلم، وقواعد التربية، وأول من وضع الخط؛ وعلم الحساب بالنجوم وقواعد سير الكواكب، وتركيب البسائط بالنار فلذلك كان علم الكيمياء ينسب إليه، وأول من علم الناس الخياطة. فكان هو مبدأ من وضع العلوم، والحضارة، والنظم العقلية)

[5]) قال ابن المطهر :في البدء والتاريخ ج1 ص 128

جاء في كتب التاريخ (سمي إدريس لكثرة درسه ن وهو أول نبي أعطي الرسالة بعد آدم وكان مستخلفا خلافة نبوة لا خلافة رسالة ، وإدريس أول من خط بالقلم بعد آدم ، وأول من خاط الثياب ولبسها ، وكان من قبله يلبسون الجلود وكان ولد آدم حي ونبأه الله بعد وفاة آدم وأنزل عليه النجوم والطب ، واسمه عند اليونانيين "هرمس" ، وكان يصعد له من العمل في كل يوم مثل عمل بني آدم كلهم، فشكر الله ذلك له فرفعه مكانا علياً ، واختلف الناس كيف رفع، في كتاب أبي حذيفة أن الملائكة كانوا يصافحون بني آدم في زمن ادريس ويزورونهم في رحالهم ومجالسهم لطيب الزمان وصلاح أهله فاستأذن ملك الشمس في زيارته فأذن له فسأله ادريس أن يرفعه إلى السماء ليعبد الله فيها مع الملائكة فرفعه الله فهو في السماء الرابعة

[6]) تفسير الشعراوي ج1 ص 5574

لكن مما يخال للعلماء أنه قيل في حقه ما روي عن رسول الله ﷺ قَالَ (**كَانَ نَبِيٌّ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ فَذَاكَ**)[1]، فأخبر النبي ﷺ أن نبياً من الأنبياء السابقين (قيل هو إدريس أو دانيال عليهما السلام) كان يخط في الأرض، وكانت خطوطه تصيب الحق لأنها كانت بوحي من الله.

وقد أجمع العلماء على أن الخط في الأرض محرم، لأن العلم الذي كان لدى ذلك النبي قد انقطع بموته، ولم يعد لأحد طريق لمعرفته.

وقد بيَّن النووي أن هذا الأمر غير مشروع في ملتنا إلا بشرط أن يوافق الخط خط النبي ، وهذا مستحيل ، فهو شرط تعجيز قال النووي (فالصحيح أن معناه من وافق خطه فهو مباح له . ولكن لا طريق لنا إلى العلم اليقيني بالموافقة فلا يباح ، والمقصود أنه حرام لأنه لا يباح إلا بيقين الموافقة وليس لنا يقين بها)

وقد بيّن النووي غرض النبي من الحل المقترن بشرط تعجيزي أنه لأجل حفظ مقام هذا النبي ، فقال (وإنما قال النبي ﷺ فيمن وافق خطه فذاك ولم يقل هو حرام بغير تعليق على الموافقة لئلا يتوهم متوهم أن هذا النهي يدخل فيه ذاك النبي الذي كان يخط ، فحافظ النبي ﷺ على حرمة ذاك النبي مع بيان الحكم في حقنا ، فالمعنى أن ذلك النبي لا منع في حقه وكذا لو علمتم موافقته ، ولكن لا علم لكم بها)[2].

قال العلماء يعني: (أن نبياً من أنبياء الله عز وجل **أوحى الله إليه أن يقوم بهذا الخط، وأما غيره فليس له ذلك**، ولهذا علق ذلك على أمر لا يمكن الوقوف عليه ومعرفته فقال: (فمن وافق خطه فذاك)، ومن المعلوم أنه لا يمكن لأحد أن يوافق ذلك الخط، فدل على أن الخط غير سائغ، فيكون هذا الحديث متفقاً مع النصوص الأخرى الدالة على أنه لا يستعمل الخط في الأرض، وإنما هو إخبار عن أمر غيبي قد مضى، فهذا تعليق على شيء لا يمكن الوصول إليه والوقوف عليه، والنتيجة أنه لا يجوز للإنسان أن يخط في الأرض)[3].

قوله (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) (58) هؤلاء جميعا المنعم عليهم ،المذكورون في سورة الفاتحة ،الذين ندعو الله كل ركعة أن يهدينا إلى صراطهم المستقيم (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم) .

فإذا سألنا الله صراطهم، فعلينا أن نتحلى بسمتهم التي ختمت بها الآية :**تأثر القلب، وخضوع الجوارح، والانكسار أمام آيات الرحمن** .فالهداية ليست مجرد معرفة نظرية أو دعاء على اللسان، بل منهج حياة يبدأ بخشوع القلب عند سماع الوحي، ويظهر في السجود لله والعمل بطاعته، ليكون العبد امتدادًا صادقًا لذلك الموكب المبارك من الأنبياء والصالحين

إنَّ المتأمل في سياقِ الآية الكريمة، حين يستعرضُ أولئك الصفوةَ المنعَم عليهم، لَيقفُ على مَلحظٍ جليلٍ ودلالةٍ بالغةِ العمق؛ إذ يلحظُ أنَّ اللهَ سبحانه قد خصَّ بالذكرِ أصولاً شريفةً وأنساباً عريقة، فجعلهم من ذريةِ آدمَ أبي البشر، وممّن نجا وحُمل في فُلك نوحٍ عليه السلام، ومن سُلالة إبراهيمَ خليلِ الرحمن، وإسرائيلَ نبيِّ الله. فهؤلاء جميعاً إمّا أن يجمعهم شرفُ الانتساب إلى دوحةِ النبوةِ الباسقة، أو ينضوون تحت لواءِ أتباعهم الذين ساروا على هديهم.

---

[1]) رواه مسلم ج 3 ص 140 رقم 836
[2]) شرح النووي على مسلم ج5 ص 23
[3]) شرح سنن أبي داود لعبد المحسن العباد ج22 ص 253

ثم تأتي اللفتةُ القرآنيةُ الجامعةُ لتُتمَّ العِقدَ الفريد بقوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ [مريم: 58]؛ ليشملَ الفضلُ الإلهيُّ كلَّ مَن اصطفاه اللهُ وهداه للإيمان من سائرِ الخلق، وإن لم يربطهم بالأنبياءِ نسبٌ قريب، بل جمعتهم بهم آصرةُ العقيدةِ وشرفُ الصحبةِ والاتباع؛ تحقيقاً لقولِ المصطفى ﷺ : «إِنَّ آلَ أَبِي بَنِي فُلَانٍ لَيْسُوا لِي بِأَوْلِيَاءَ، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ» متفق عليه . وفي هذا السياقِ البيانيّ يقولُ الإمامُ ابنُ كثيرٍ رحمه الله في تفسيره: «أي: جعلناهم من ذريةِ هؤلاءِ المذكورين؛ ليدلَّ على أنَّ الخيرَ فيهم متوارث، وأنَّ شرفَ النسبِ إذا اقترنَ بالإيمانِ كان نوراً على نور، ثم عمَّم بقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ لئلا يُظنَّ أنَّ الفضلَ مقصورٌ على النسبِ دون العمل.

وفي تقديمِ ذوي الأرحامِ والأقربينَ في الذكرِ والاصطفاء، ترسيخٌ لقاعدةٍ أصيلةٍ في فقهِ الدعوةِ والإصلاح؛ وهي أنَّ الأقربينَ هم أولى الناسِ بالبلاغِ والهداية، وأحقُّهم بالرعايةِ والعناية. فهي الدائرةُ الأولى التي ينطلقُ منها نورُ الرسالةِ ليمتدَّ أثرُها إلى الآفاق، مصداقاً للأمرِ الإلهيّ الصريحِ لخاتمِ الأنبياء ﷺ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]. وقد أشارَ الإمامُ الطاهرُ ابنُ عاشور في «التحرير والتنوير» إلى هذه الحكمةِ البالغة، مبيّناً أنَّ تذكيرَهم بأصولهم الصالحةِ هو استنهاضٌ لهممهم، وتنبيهٌ على أنَّ القرابةَ تستوجبُ مزيدَ حرصٍ على النجاةِ والفلاح، فصلاحُ الأسرةِ والذريةِ هو اللبنةُ الأساسُ في بناءِ المجتمعِ المؤمنِ المتماسك.

قوله (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا) قال ابن عجيبة (هذا استئناف؛ لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له ، مع ما لهم من علو الرتبة وسمو الطبقة في شرف النسب ، وكمال النفس والزلفى من الله عزّ وجلّ)[1].

ودلت الآية على أن جميعهم يشتركون في أداء الصلاة لله ، فهذا هو دأبهم مع كتاب الله وآياته ، قال الرازي (دلت الآية على أن جميع الأنبياء عليهم السلام كانوا يسجدون لله)[2].

وقد كان الصحابة يقتدون بحالة الخشوع هذه المصاحبة للأنبياء جميعا ، فعن ابن عمر "أن عمر قرأ سورة مريم، فسجد ثم قال هذا السجود فأين البكاء"[3]

وقال رسول الله ﷺ (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ نَزَلَ بِحُزْنٍ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهُ فَابْكُوا فَإِنْ لَمْ تَبْكُوا فَتَبَاكَوْا وَتَغَنَّوْا بِهِ فَمَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِهِ فَلَيْسَ مِنَّا)[4].

فالانفعال والخشوع عند قراءة القرآن يظهر في الأداء الصوتي ، ولذلك يستحب لقارئ القرآن أن يحسن صوته بالقراءة قال رسول الله ﷺ **(لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ)**[5]، فإحسان تلاوته أدعى للخشوع ، يقول رسول الله ﷺ **(حسن الصوت زينة القرآن)**[6] .

---

[1]) البحر المديد ج3 ص 472
[2]) تفسير الرازي ج4 ص 307
[3]) كنز العمال ج2 ص 314 رقم 4097 ، شعب الإيمان للبيهقي ج2 ص 365 ، مصنف ابن أبي شيبة ج14 ص 8
[4]) رواه ابن ماجة ج4 ص 235 رقم 1327 وضعفه الألباني : لكن معناه صحيح
[5]) رواه البخاري ج23 ص 55 رقم 6973
[6]) رواه الطبراني : المعجم الكبير ج10 ص 82 رقم 10043 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة ج4 ص 429 رقم 1815

المحور الخامس

من الخلف مفرطون ، ومنهم تائبون

قال تعالى (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا (63) وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

إنها لَعمري قمة الخيبة ومنتهى الحسرة، أن يعقب أولئك الصفوة الذين أسبغ الله عليهم نعمة الهداية، جيلٌ رديءٌ ينحرف عن الجادة؛ فيُضيعون عماد الدين وصلة العبد بربه، وينكبون عن سنن الأنبياء وهدي المرسلين، ليستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، منقادين خلف أهوائهم وشهواتهم، مستحقين بذلك الوعيد الشديد بالهلاك والضلال في الدنيا والآخرة.

قوله (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (59) فدوام الحال على وتيرة واحدة غالباً يكون من المحال ، ولذلك تتبدل الأحوال كل زمان ، يقول النبي ﷺ (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ)[1].

وهذا التبدل في الأحوال وتتابع الفتن عبر الأزمان، هو ما أنبأ به الصادق المصدوق ﷺ محذرًا أمته من غوائل المستقبل؛ فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وتلا هذه الآية: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾، فقال ﷺ : **(يَكُونُ خَلْفٌ مِنْ بَعْدِ سِتِّينَ سَنَةً أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا، ثُمَّ يَكُونُ خَلْفٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يَعْدُو تَرَاقِيَهُمْ، وَيَقْرَأُ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةٌ: مُؤْمِنٌ، وَمُنَافِقٌ، وَفَاجِرٌ.**[2]]

ولقد وضع النبي ﷺ للمؤمنين منهج الثبات أمام هذا التراجع القيمي وتوالي المحن، فدعاهم إلى الصبر والاحتساب؛ فعن الزبير بن عدي قال: دخلنا على أنس بن مالك رضي الله عنه فشكونا إليه ما نلقى من الحجاج، فقال (**اصْبِرُوا، فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**).[3]ورواه البخاري بلفظ (اصْبِرُوا فَإِنَّهُ لَا يَأْتِي عَلَيْكُمْ زَمَانٌ إِلَّا الَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ)[4]

وقد بيَّن الحافظ ابن حجر هذا المعنى: موضحًا إن المراد بذلك تغلب أهل الشر، واندراس معالم الخير، وانتقاص العلم والدين جيلًا بعد جيل. وعلل ذلك بذهاب العلماء فقال (ذهاب العلماء ثم يحدث قوم يقيسون الأمور بأرائهم فيهدم الإسلام)[5].

---

[1]) رواه البخاري ج9 ص 133 رقم 2458
[2]) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 406 رقم 3416 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج7 ص35 ورواه أحمد وابن حبان
[3]) رواه الترمذي ج8 ص 135 رقم 2132 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 206
[4]) رواه البخاري ج21 ص 457 رقم 6541
[5]) فتح الباري ج13 ص 283 ، ص 20

وليس المقصود بإضاعة الصلاة في الآية الكريمة تركها بالكلية فحسب، بل يشمل التفريط في مواقيتها[1]، "**فليس معنى أضاعوها أنهم تركوها بالكلية ولكن أخروها عن أوقاتها** ".

فعَنْ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَنَّهُ دَخَلَ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ فِي دَارِهِ بِالْبَصْرَةِ حِينَ انْصَرَفَ مِنْ الظُّهْرِ وَدَارُهُ بِجَنْبِ الْمَسْجِدِ فَلَمَّا دَخَلْنَا عَلَيْهِ قَالَ أَصَلَّيْتُمْ الْعَصْرَ فَقُلْنَا لَهُ إِنَّمَا انْصَرَفْنَا السَّاعَةَ مِنْ الظُّهْرِ قَالَ فَصَلُّوا الْعَصْرَ فَقُمْنَا فَصَلَّيْنَا فَلَمَّا انْصَرَفْنَا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ **تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ** يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا)[2].

وقال سعيد بن المسيب إمام التابعين : (هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر ولا يصلي العصر إلى المغرب ولا يصلي المغرب إلى العشاء ولا يصلي العشاء إلى الفجر ولا يصلي الفجر إلى طلوع الشمس فمن مات ،وهو مصر على هذه الحالة ولم يتب وعده الله بغي وهو واد في جهنم بعيد قعره خبيث طعمه)[3].

وكذلك يكون التضييع لها بالإخلال بأركانها، وتفريغها من روح الخشوع والطمأنينة؛ قال الإمام ابن كثير قال الأوزاعي عن موسى بن سليمان عن القاسم بن مخيمرة في قوله: ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركًا كان كفرًا " [4].فهؤلاء القوم قد فرّطوا في حقوق الله تعالى؛ فإن أقاموا الصلاة أقاموها استخفافًا وتهاونًا لا تعظيمًا واستحقاقًا، ينقرونها نقر الغراب دون أن تستقر فيها جوارحهم أو تخشع فيها قلوبهم.

وقد شدد النبي ﷺ النكير على من يُخلّ بطمأنينة الصلاة وأركانها، فجعلها شرطًا لصحة العبادة وقبولها؛ فقال ﷺ **(لَا تُجْزِئُ صَلَاةُ الرَّجُلِ حَتَّى يُقِيمَ ظَهْرَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ)**[5]

ويتجلى هذا الأصل العظيم بوضوح في حديث المسيء صلاته؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل المسجد، فدخل رجل فصلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فرد عليه السلام وقال:(**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**)، فرجع الرجل فصلى كما صلى، ثم جاء فسلم على النبي ﷺ، فقال :(**ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ**)"ثلاثًا". فقال الرجل: والذي بعثك بالحق ما أُحسن غيره فعلمني. فقال ﷺ (إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ **حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا**، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ **حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا**، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا][6]

يُستفاد من هذين الحديثين الجليلين أن صلاة العبد لا تصح ولا تبرأ بها ذمته ما لم يُسَوِّ ظهره ويستقر في ركوعه وسجوده وسائر أركانه. وقد أجمع جمهور الفقهاء على أن **الطمأنينة ركنٌ أصيل وفرضٌ لازم** في الصلاة، لا تكتمل إلا به؛ (فإنه نص صريح في أن من لا يقيم صلبه في الركوع والسجود لا تجوز صلاته، وهو المراد بفرضية الطمأنينة في الركوع والسجود، وإليه ذهب مالك، والشافعي، وأحمد والجمهور، وهو مذهب أبي يوسف، وهو الحق لحديث الباب، ولحديث المسيء في صلاته) [7].

---

[1]) في هذا المعنى تفسير ابن أبي حاتم ج9 ص 267 عن عمر بن عبد العزيز
[2]) رواه مسلم ج3 ص 318 رقم 987
[3]) الكبائر للذهبي ج1 ص 17
[4]) تفسير ابن كثير ج5 ص 243 ، الطبري ج18 ص 215
[5]) رواه أبو داود ج3ص24رقم 729 والترمذي ج1ص498.
[6]) رواه البخاري ج3 ص 205 رقم 715
[7]) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ج3 ص 194 رقم 885

فالطمأنية ركن من أركان الصلاة وهي الوعاء الذي يحفظ للصلاة هيبتها، ويُحقق للعبد صلتَه الحقيقية بخالقه، فإذا فُقدت الطمأنينة تحولت الصلاة إلى حركات جوفاء لا روح فيها، وهو عين الإضاعة التي توعّد الله أصحابها بالغيّ والخسران.

فقوله (وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) (59) فلو أنهم لم يضيعوا الصلاة وحافظوا عليها وأدوها بحقها ولم يستخفوا بها لنفعتهم الصلاة في البعد عن الشهوات ، يقول الحق تبارك وتعالى (**إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**) [العنكبوت : 45] .





إذ ترتبط إضاعة "الصلاة" باتباع "الشهوات" بعلاقة عكسية وثيقة؛ فالتفريط في الصلاة يقود صاحبه حتمًا إلى الانجراف نحو الشهوات. فهذان الطريقان يسيران في اتجاهين متضادين، ومن سلك أحدهما فقد فارق الآخر بالضرورة.

وفي هذا المعنى، قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[1]. وقد أوضح الإمام المناوي معنى هذا الحديث مبينًا أن إحاطة النار بالشهوات تعني أنها محجوبة بما تستلذه النفس من متع الدنيا المحرمة شرعًا، سواء كانت محرمة لذاتها أو لأنها تؤدي إلى تضييع واجب. أما إحاطة الجنة بالمكاره، فتعني أنها محجوبة بما كُلّف به الإنسان من مجاهدة النفس فعلًا وتركًا، وقد سُمّيت مكاره لما يلاقيه العبد من مشقة وصعوبة في أدائها؛ فلا سبيل إلى النار إلا باتباع الشهوات، ولا وصول إلى الجنة إلا بتحمّل المشقات[2].

ويؤكد هذا الأصل قول النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ **حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ**»[3].

قوله (إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا) (60) فالتوبة تمحو ما قبلها ، شريطة أن تكتمل أركانها ، فعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِنْ امْرَأَةٍ قُبْلَةً فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (**أَقِمْ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ**) فَقَالَ الرَّجُلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِي هَذَا قَالَ لِجَمِيعِ أُمَّتِي كُلِّهِمْ)[4].

---

[1]) رواه مسلم ج13 ص 448 رقم 5049
[2]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج1 ص 1002
[3]) رواه البخاري ج1 ص 90 رقم 50
[4]) رواه البخاري ج2 ص 351 رقم 495

فعن أَبي هريرة – رضي الله عنه – ، قَالَ : سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول (أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرنِهِ شَيْءٌ ؟) قالوا : لا يَبْقَى مِنْ دَرنِهِ شَيْءٌ ، قَالَ (**فَذلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخَطَايَ**) متفقٌ عَلَيْهِ

وعن جابرٍ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ (مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهْرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ) رواه مسلم .

وعن أَبي هريرة أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (**الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ ، مَا لَمْ تُغشَ الكَبَائِرُ**) رواه مسلم

وعن عثمان بن عفان – رضي الله عنه – ، قَالَ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ ، يقول (مَا مِنْ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلاَةٌ مَكْتُوبَةٌ **فَيُحْسِنُ وُضُوءها ؛ وَخُشُوعَهَا، وَرُكُوعَهَا ، إِلاَّ كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوب مَا لَمْ تُؤتَ كَبِيرةٌ ، وَذلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**) رواه مسلم .

قوله (جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا) (61) هذا وعد الله ،وعده لعباده المصلين الموحدين ، الذين يؤمنون بالغيب ، هؤلاء هم الذين انشغلت نفوسهم بما أعدّه الله لهم في الدار الآخرة من نعيمٍ مقيمٍ وجنانٍ خالدة، فغدا يقينهم بالغيب هو المحرّك الأول لهم نحو كل عملٍ صالح؛ تراهم يسجدون لربهم خاشعين وهم لم يروه، ويطمعون في جنته متشوقين ولم يروها، ويستعيذون به من ناره وجلين ولم يروها. وبذلك اليقين الصادق، استحقوا أن ينالوا رضا الله ومراده، وأن يظفروا بوعده الذي لا يُخلف أبدًا.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ قَالَ فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا قَالَ فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ مَا يَقُولُ عِبَادِي قَالُوا يَقُولُونَ يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قَالَ فَيَقُولُ هَلْ رَأَوْنِي قَالَ فَيَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ قَالَ فَيَقُولُ **وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي** قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا قَالَ يَقُولُ فَمَا يَسْأَلُونِي قَالَ يَسْأَلُونَكَ الْجَنَّةَ قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُ **فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا** قَالَ يَقُولُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً قَالَ فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ قَالَ يَقُولُونَ مِنْ النَّارِ قَالَ يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُونَ لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا قَالَ يَقُولُ **فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا** قَالَ يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً قَالَ فَيَقُولُ **فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ** قَالَ يَقُولُ مَلَكٌ مِنْ الْمَلَائِكَةِ فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ قَالَ هُمْ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ)[1]

قوله (لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا) نُزّهت أسماع أهل الجنة عن كل لغوٍ وباطل، لاشتغال ألسنتهم وقلوبهم بذكر الله تسبيحاً وتحميداً؛ إذ يجري التسبيح على ألسنتهم في يسرٍ وفطرة كما يجري النَّفَس في صدور الأحياء دون كلفة أو عناء، مصداقاً لقول النبي ﷺ في وصف حالهم (**يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالْحَمْدَ كَمَا تُلْهَمُونَ النَّفَسَ**)[2].

[1]) رواه البخاري ج20 ص 24 رقم 5929
[2]) رواه مسلم ج13 ص 473 رقم 5067

وقد جاء استثناءُ «السلام» من «اللغو» هنا استثناءً منقطعاً[1]؛ ليدلَّ ببلاغةٍ عجيبة على أن ألسنتهم لا تنطق من مألوف كلام الدنيا إلا بالسلام، وما سوى ذلك فلهجٌ بالتسبيح والتحميد. فغدا السلام شعارهم الأوحد في تخاطبهم وتواصلهم، ومن هنا استحقّت الجنة أن يُسميها الله تعالى "دار السلام"

وقد جلّى الإمام ابن القيم رحمه الله سرّ هذه التسمية ببيانٍ شافٍ فقال) :وقد سمّاها الله بهذا الاسم في قوله: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾، وهي أحق بهذا الاسم ، فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله واسمه سبحانه وتعالى السلام الذي سلمها وسلم أهلها "وتحيتهم فيها سلام" "والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم" والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى "لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب رحيم") [2].

قوله (وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا) (62) أوضح المفسرون أن الجنة لا يُعرف فيها تعاقبُ الليل والنهار المعهود في الدنيا، كما أخبر سبحانه: ﴿**لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا**﴾ [الإنسان: 13]، وإنما هي ضياءٌ سرمدي ونورٌ دائم لا يغشاه ظلام. وبيّن قتادة رحمه الله المراد بـ «البكرة والعشي» فقال :(فيها **ساعتان**: بكرة وعشي؛ ليس ثَمَّ ليلٌ ولا نهار، وإنما هو ضوءٌ ونور) [3]؛ أي أن لأهل الجنة مقاديرَ زمنية معلومة يتوالى عليهم فيها الرزق والنعيم على نحو ما كانت تتوالى عليهم البكرة والعشي في دار الدنيا، ليدركوا تمام النعمة وتجددها.

ويُجلي هذا النعيمَ المقيمَ حديثُ أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ "**أول زُمْرَة تلج الجنة صُورهم على صورة القمر ليلة البدر**، لا يبصُقون فيها، ولا يتمخطون فيها، ولا يَتَغَوّطون، آنيتهم وأمشاطهم الذهب والفضة، ومجامرهم الأُلْوّة، ورَشْحُهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مُخّ ساقيهما من وراء اللحم؛ من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًّا"[4].

قوله (تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا) (63) تلك الدار العامرة بهذه الكرامات هي الميراث الخالد الذي يخصّ الله به عباده المتقين. ومن تمام نعيم الله عليهم في تلك اللحظة أن يريهم عظيم فضله ونجاتهم، كما أخبر النَّبِيُّ ﷺ قَالَ (**لَا يَدْخُلُ أَحَدٌ الْجَنَّةَ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ لَوْ أَسَاءَ لِيَزْدَادَ شُكْرًا** وَلَا يَدْخُلُ النَّارَ أَحَدٌ إِلَّا أُرِيَ مَقْعَدَهُ مِنْ الْجَنَّةِ لَوْ أَحْسَنَ لِيَكُونَ عَلَيْهِ حَسْرَةً)[5].

قوله (وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا) قال الواحدي ("وما نتنزل" كان جبريل عليه السَّلام قد احتبس عن النبيّ ﷺ أيَّاماً ، فلمَّا نزل قال له : ألاَّ زرتنا ، فأنزل الله سبحانه "وما

---

1) قال الألوسي : (والاستثناء منقطع وهو من تأكيد المدح بما يشبه الذم محتمل لأن يكون من الضرب الأول منه ، وهو أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح له بتقدير دخولها فيها بأن يقدر السلام هنا داخلاً فيما قبل فيفيد التأكيد من وجهين ، وأن يكون من الضرب الثاني منه وهو أن يثبت لشيء صفة مدح ويعقب بأداة استثناء يليها صفة مدح أخرى بأن لا يقدر ذلك ، ويجعل الاستثناء من أصله منقطعاً فيفيد التأكيد من وجه ، ولولا ذكر التنئيم على ما قاله السعد جاز جعل الاستثناء متصلا حقيقية لأن معنى السلام الدعاء بالسلامة وأهل الجنة أغنياء عن ذلك فكان ظاهره من قبيل اللغو وفضول الكلام لولا ما فيه من فائدة الإكرام)
تفسير الألوسي ج20 ص 220

2) التفسير القيم لابن القيم ج2 ص 172

3) تفسير ابن كثير ج5 ص 248

4) تفسير ابن كثير ج5 ص 247

5) رواه البخاري ج20 ص 233 رقم 6084

نتنزل إلاَّ بأمر ربك له ما بين أيدينا" من أمر الآخرة "وما خلفنا" ما مضى من أمر الدُّنيا ، "وما بين ذلك" ما يكون من هذا الوقت إلى قيام السَّاعة ، "وما كان ربك نسياً" تاركاً لك منذ أبطأ عنك الوحي)[1].

إنَّ من أعظم ما يمنُّ الله به على عبده في هذه الحياة الدنيا أن يسكب في قلبه السكينة، ويُفيض على روحه الطمأنينة كلما أقبل على محراب العبادة؛ مصداقاً لقوله تعالى :﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ (الرعد: 28). فيعيش العبد في كنف الله آمناً مطمئناً، لا تستخفُّه عواصف الخوف، ولا يُفزعه ما يُفزع الناس، فطوبى لمن اتصل حبل قلبه بالله ووحيه، فنال عاجل بشرى المؤمنين في الدنيا قبل الآخرة.

غير أنَّ تمام العبودية وكمال الإخلاص يقتضيان أن يدرك السالك إلى الله أن هذه السكينة وتلك الطمأنينة إنما هما ثمرتان عاجلتان، ونفحتان ربانيتان لا ينبغي أن تُقصدا بالعبادة لذاتهما؛ فالعبدُ يُعبد اللهَ لأنه أهلٌ للعبادة، لا طلباً لحظِّ النفس من الراحة والانشراح. ومن هنا، يتعين على المؤمن أن يوطّن نفسه على الصبر والمصابرة في أداء الطاعات وتكبُّد مشاقّها، وإن غابت عنه حلاوة الأنس، أو زايلت قلبه الطمأنينة؛ كما في حال المجاهد في سبيل الله الذي يقف في نحر العدو، فيبتليه الله بالخوف والوجل، تحقيقاً لسنته سبحانه :﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ**﴾ (البقرة: 155).

وفي هذا المعنى قرر أئمة أهل السنة وأعلام السلوك المنضبطون بميزان الشرع قواعد جليلة؛ فقد بيّن **شيخ الإسلام ابن تيمية** رحمه الله أن المقصود من العبادة هو امتثال أمر الله ومحبته لذاته، لا مجرد ما يجده القلب من الذوق والوجد، فإن الوجد والسكينة قد يحصلان للمؤمن تارة ويفقدهما تارة ابتلاءً وامتحاناً، ليتبيّن الصادق الذي يعبد الله على كل حال ممن يعبد الله على حرف. كما أشار **الإمام ابن القيم** في" مدارج السالكين" إلى خطورة التعلّق بـ "حظوظ النفس" في الطاعات، مؤكداً أن العارف الصادق هو من يكون "عبدَ الأمر" أينما توجه، لا "عبدَ الحال" والراحة؛ فإن وجد الأنس حمد الله، وإن فُقد منه الأنس وغشيته الكربة مضى في طاعته صابراً محتسباً.

وهو عين ما أرشد إليه أئمة السلوك المعتدلون؛ كـ **الجنيد البغدادي** سيد الطائفة حين عرّف الصدق والإخلاص بأنه" :تصفية العمل من ملاحظة المخلوقين، ومن طلب حظوظ النفس"، وكما قال **أبو سليمان الداراني**" :من عمل لشيء من حظوظ نفسه، فقد نقص من إخلاصه بقدر ما التفت إليه."

وعلى هذا الميزان الدقيق، فإنه وإن كانت الملائكة تتنزل بالسكينة وتُصاحب المؤمنين في مجالس الذكر ومواطن الطاعة —كما ثبت في الصحيح من حديث تنزّل السكينة وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة للذاكرين— وإن كان المؤمنون يفرحون بفضل الله ورحمته تلك؛ إلا أن كمال التجريد يوجب على العبد أن يُخلّص عبادته حتى من التعلّق بحظِّ صحبة الملائكة أو نيل الكرامات، فلا يلتفت قلبه في عبوديته إلا إلى وجه الله وحده، مستشعراً قوله سبحانه :﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾(البينة: 5) ، ليكون بذلك قد حقق أسمى مقامات العبودية الخالصة لله رب العالمين .

قوله (رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا) (65) إن النظر في ملكوت السماوات والأرض وما بينهما يقذف في قلب العبد الرهبة من خالقهما ، ويحمله على تعظيم ربه ومولاه ، وتلك صورة من صور العبادة لله رغم أنه تعتمد على التفكر والتأمل في الملكوت إلا إنها مثل أي عبادة لله تتطلب مزيدا من الصبر

[1]) الوجيز للواحدي ج1 ص 494

والاصطبار ، ولذلك أمر الله بالنظر إلى السماء مرتين ثم مرة ثالثة في قوله (مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ * ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِأً وَهُوَ حَسِيرٌ) (الملك 3- 4) ليتعلم المكلف كيف يتفكر في خلق الله مرة بعد مرة ، فلا يمل من النظر والتأمل .

فلفظ (اصطبر) يعني (شدة الصبر على الأمر الشاق، لأن صيغة الافتعال ترد لإفادة قوة الفعل) [1] ، أي (فأخلص له العبادة ووطن نفسك على أداء هذه العبادة بصبر وجلد وقوة احتمال ، فإن المداومة على طاعة الله تحتاج إلى عزيمة صادقة ، ومجاهدة للنفس الأمارة بالسوء) [2] .

إن تحقيق العبودية الحقة لله يتطلب منا مجاهدةً للنفس وصبرًا على متطلبات الارتقاء الروحي؛ فنحن حين نقف بين يدي الله، نحتاج إلى استجماع كامل طاقتنا الذهنية والقلبية، وتصفية أذهاننا من كل ما يشتت انتباهنا أو يسرق تركيزنا من ضجيج الحياة اليومية.

صحيح أن هذا التركيز العميق والتجرد التام يحمل في بدايته مشقة وتحديًا للنفس، لكنه في المقابل يفتح أبوابًا من السكينة واللذة الروحية التي لا يدركها إلا من عاشها بصدق. هذه الحلاوة الإيمانية لا تُمنح إلا لمن يقبل على العبادة بحضور قلب كامل، ويفتح لها كل حواسه ومشاعره؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾.

والأهم من ذلك، أن ندرك أن العبادة بمفهومها الشامل لا تقتصر على أداء الشعائر التعبدية فحسب، بل هي منهج حياة متكامل يشمل كل حركة نخطوها، وكل فكرة تخطر ببالنا، وكل نية نعقدها، وكل عمل ننجزه.

إن التحدي التربوي الأكبر هو أن ننجح في توجيه بوصلة حياتنا اليومية نحو الله وحده، وأن نحافظ على نقاء قلوبنا وصفاء نوايانا وسط ضغوط الحياة، ومتطلبات المعيشة، ورغبات النفس، وأعراف المجتمع. هذا التوازن هو جوهر المجاهدة التي تحتاج إلى صبرٍ جميل واستمرارية.[3].

قوله تعالى :﴿**هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا**﴾ يأتي استنكاراً بليغاً يقطع دابر كل ظنٍّ بوجود شبيهٍ أو نظيرٍ أو كفءٍ للخالق سبحانه[4]؛ وكأنه نداءٌ يهزُّ الوجدان: أنَّ لِمُحْدَثٍ فَانٍ أن يُضاهي مَن تفرَّد بالقِدَم والبقاء؟! إنَّ التماثل يقتضي المساواة، والله جلَّ في علاه منزَّهٌ عن المثيل والندِّ، فلا شبيه له في الوجود ولا حتى في خيال الأوهام[5]، ولم يتجرَّأ مخلوقٌ قطُّ على أن يتسمَّى باسمه الأعظم "الله".

ومن عجيب لطف الله وحكمته أنَّ البشر، على تعدد طغيانهم، لم يجرؤ أحدٌ منهم على منازعته سبحانه في صفة «الرحمن»، ولم يتسمَّ بها بشرٌ قط؛ مصداقاً لقوله تعالى :﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا**﴾ (الفرقان: 60). ولذلك أوجز حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما معنى الآية بقوله: «لا يُسمَّى أحدٌ الرحمنَ غيره".[6]

---

[1]) التحرير والتنوير ج16 ص 64
[2]) الوسيط لسيد طنطاوي ج1 ص 2793
[3]) انظر في هذا المعنى في ظلال القرآن ج5 ص 103
[4]) تفسير ابن كثير ج5 ص 214
[5]) تفسير القشيري ج4 ص 453
[6]) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج2 ص 515 رقم 3767 قال الذهبي في التلخيص صحيح الاسناد

ويزداد هذا المعنى رسوخاً في القلب حين نتأمل توالي هذا الاسم الجليل في أواخر سورة مريم؛ تارةً في سياق العدل والهيبة :﴿**ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا**﴾ (مريم: 69)، وتارةً في بيان الإمهال والحكمة :﴿**قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا**﴾ (مريم: 75)، وتارةً في تنزيه جنابه العظيم عن الولد والشريك :﴿**أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا**﴾] (مريم: 78)، وقوله :﴿**لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا * وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا**﴾ (مريم: 87-88)، ليختم المشهد بالتنزيه المطلق :﴿**أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا**﴾] (مريم: 91-92)

وهنا تتجلى اللطيفة التربوية العظيمة؛ فبإفراد ذاته سبحانه باسم «الرحمن»، يشرع الله للتائبين والمذنبين أوسع أبواب الأمل، ويدعوهم أن يرفعوا أكفَّ الضراعة إلى السماء متوسلين بأسمائه الحسنى، ومستشفعين باسمه «الرحمن» على وجه الخصوص. فليس في الوجود مَن يجيب المضطر سواه، ولا مَن يسمع أنين المشتكين ويبصر خفايا النفوس غيره. ومهما أسرف العبد على نفسه، وتاه في دروب الغفلة والشهوات، يبقى السميع البصير قريباً منه، يترقب أوبته ويفرح بتوبته.

ويا لها من حقيقة تهزُّ القلوب: فعلى كثرة ما اتخذ المشركون من أندادٍ وأصنام، ورغم تعلقهم بالملوك والأسباب طلباً للرزق أو العزة، لم يجرؤ مخلوقٌ قطُّ أن يدَّعي لنفسه صفة «الرحمن»، ولم يخطر ببال عاقلٍ أو جاهل أن يطلب المغفرة والرحمة من غير الله؛ لتبقى الرحمة المطلقة تاجاً يتفرَّد به ربُّ العالمين، وملاذاً آمناً لكل قلبٍ منكسرٍ يعود إليه.

المحور السادس

الإيمان بالبعث ميزان التفاضل بين أهل أندية الشرك وبين أهل العزلة أصحاب المقام الندي

قال تعالى (وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68) ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74) قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا (76)

قوله (وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا) (66) إنه التساؤل المستنكر الذي طالما دار على ألسنة الجاحدين، فكان هو الفارق الجوهري والفيصل المبين بين فريقين من البشر؛ فالموقن بالبعث والنشور يُقبل على عمل الآخرة بعزيمة صادقة، بينما يغرق المكذّب به في أوحال الدنيا، مفتونًا بشهواتها الزائلة، ومصداق ذلك قوله سبحانه(إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا) (النبأ: 27).

وقوله عز وجل (أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا) (مريم: 67]؛ فيه إقامةٌ للحجة الدامغة وتذكيرٌ بأصل النشأة الأولى؛ إذ لو تأمل الإنسان في مبدأ خلقه لأدرك بيقين أن الخالق الذي أوجده من العدم المحض، قادرٌ من باب أولى على إحيائه وبعثه بعد الموت. فإذا استقرت في العقول قدرة الله المطلقة على الإيجاد ابتداءً، استحال في منطق العقل أن يعجزه سبحانه الإحياء إعادةً؛ وحسبُ العبد العاقل أن يبلغه وعد الله الصادق بالبعث، ليتأهب لذلك اليوم العظيم خير تأهب.

قوله (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ..) (68) أقسم الله تعالى بذاته المقدسة ؛ توكيدًا لجمع المكذبين بالبعث مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم وأضلوهم عن سواء السبيل[1]، إذ جمعتهم رابطة الجحود في الدنيا ، فاستحقوا أن يُقرنوا معًا في عرصات القيامة.

ولا يعني كفر الشيطان بالبعث جهله بوقوعه أو إنكاره لحقيقته في قرارة نفسه؛ فالقرآن الكريم يُثبت يقين إبليس التام بيوم النشور حين قال :(قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ) (الأعراف: 14). وإنما كفره به هو كفر جحود وعناد؛ إذ يعمد إلى طمس هذه الحقيقة في نفوس البشر، وتغييبها عن أذهانهم؛ ليفتنهم بزخرف الدنيا ويغرر بهم عن الآخرة.

[1]) التسهيل لابن جزي ج1 ص 985

قوله (..ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا) (68) جثيا أي : (قعودا) قاله ابن عباس ، كناية عن الانكسار والخذلان ، وذلك كقوله (وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً) [الجاثية : 28] قال السعدي أي : (جاثين على ركبهم من شدة الأهوال وكثرة الزلزال، وفظاعة الأحوال، منتظرين لحكم الكبير المتعال)[1]، وتلك حال المترقب المنتظر بقلق وريبة.

قوله (ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا) (69) المقصود بالشيعة في هذا السياق (كل جماعة تشايعت وتعاونت على الباطل)[2] ، والمعنى (لننزعن من أهل كل دين قادتهم ورؤساءهم في الشر)[3].

وصيغة المبالغة (أشد) تدل على بغض الله أفعالهم ، وغيرته من انتهاكهم حرماته ، يقول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ)[4] ، وعَنْ النَّبِيِّ ﷺ (أَنَّهُ قَالَ لَا شَيْءَ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)[5]، وعن النبي ﷺ قَالَ (الْمُؤْمِنُ يَغَارُ وَاللَّهُ أَشَدُّ غَيْرًا) [6] .

ولعل أشد الناس عتيا هم أئمة الضلال ورؤساء الكفر والدجالون ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ وَإِذَا وُضِعَ السَّيْفُ فِي أُمَّتِي لَمْ يُرْفَعْ عَنْهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ وَحَتَّى تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ لَا نَبِيَّ بَعْدِي)[7] .

قوله (ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا)(70) قال الشنقيطي أي (يبدأ بتعذيبهم وإدخالهم النار على حسب مراتبهم في الكفر، والإضلال والضلال ، فرؤساء الكفر يعذبون قبل غيرهم لضلالهم وإضلالهم)[8]

فتطول مدتهم في العذاب أكثر من غيرهم من التابعين لهم ، وذلك لحملهم أوزارهم وأوزار الذين اتبعوهم ، قال تعالى (لِيَحْمِلُواْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاء مَا يَزِرُونَ) (النحل/25) ، قال رسول الله ﷺ (مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ)[9].

قوله (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا)(71) قيل الخطاب للكفار [10]، لاسيما وقد ورد ذكر ورودها وخص به الذين يدعون لأنفسهم الألوهية دون الله تعالى ، قال تعالى (لَوْ كَانَ هَؤُلَاء آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ) (الأنبياء/99) .

---

[1]) تفسير السعدي ج1 ص 498
[2]) تفسير الألوسي ج12 ص 37
[3]) قاله قتادة وغير واحد من السلف : تفسير ابن كثير ج5 ص 251
[4]) رواه البخاري ج16 ص 244 رقم 4822
[5]) رواه مسلم ج13 ص 330 رقم 4961
[6]) رواه مسلم ج13 ص 331 رقم 4962
[7]) رواه أبو داود ج11 ص 322 رقم 3710 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن أبي داود ج9 ص 252
وقال (وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ قَالَ ابْنُ عِيسَى ظَاهِرِينَ ثُمَّ اتَّفَقَا لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ)
[8]) أضواء البيان ج3 ص 476
[9]) رواه مسلم ج5 ص 198 رقم 1691
10) عن رجل عن ابن عباس أنه قال في قول الله عز وجل {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا} قال هو خطاب للكفار وروى عنه أنه كان يقرأ وإن منهم إلا واردها ردا على الآيات التي قبلها في الكفار قوله {فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً} و {يُهِمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً} {ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً}
(التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد ج6 ص 357)

ورغم ذلك روي عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ (لَا يَمُوتُ لِمُسْلِمٍ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ فَيَلِجَ النَّارَ إِلَّا تَحِلَّةَ الْقَسَمِ) قَالَ أَبُو عَبْد اللَّهِ[1] "وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا")[2]، أي يمسه من حر النار شيء في الدنيا مسا ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (**الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ فَابْرُدُوهَا بِالْمَاءِ**)[3] .

كذلك ورد أنه عند تجاوز الصراط يرونها جميعا – لاسيما أهل الجنة – رأي العين ليحمدوا الله على أن نجاهم منها ، قال ابن حجر (والمار عليها على أقسام منهم من لا يسمع حسيسها وهم الذين سبقت لهم الحسنى من الله كما في القرآن فلا تنافي مع هذا بين الولوج والحجب)[4] .

قوله (ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا) (72) قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ) (الأنبياء/101-102) ، فالناس في النجاة من النار مراتب ودرجات ، ولعل من المناسب هنا أن نذكر حديث آخر أهل النار خروجا منها ونجاة إلى الجنة .

فعن النبي ﷺ قال : يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء .... ثم يقول : ارفعوا رؤوسكم فيرفعون رؤوسهم فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نورا مثل النخلة بيمينه ومنهم من يعطى نورا أصغر من ذلك حتى يكون رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه يضيء مرة ويفيء مرة فإذا أضاء قدم قدمه فمشى وإذا طفئ قام قال : والرب أمامهم حتى يمر في النار فيبقى أثره كحد السيف دحض مزلة قال : ويقول : مروا فيمرون على قدر نورهم منهم من يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانقضاض الكوكب ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كشد الفرس ومنهم من يمر كشد الرجل حتى يمر الذي اعطى نوره على أبهم قدميه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تخر وتعلق رجل ويصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال : الحمد لله لقد أعطاني الله مالم يعط أحدا أن أنجاني منها بعد إذا رأيتها قال : فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيغتسل فيعود إليه ريح أهل الجنة وأولوانهم فيرى ما في الجنة من خلال الباب فيقول : رب ادخلني الجنة فيقول الله له أتسأل الجنة وقد نجيتك من النار فيقول : رب اجعل بيني وبينها حجابا لا أسمع حسيسها قال : فيدخل الجنة قال : فيرى أو يرفع له منزلا أمام ذلك كأنما هو فيه إليه حلم فيقول : رب أعطني ذلك المنزل فيقول له : فلعلك إن أعطيتكه تسأل غيره فيقول : فلعلك إن أعطيتكه تسأله غير فيقول : لا وعزتك لا أسالك غيره واي منزل يكون أحسن منه ؟ قال : ويرى أو يرفع له أمام ذلك منزل آخر كأنما هو إليه حلم فيقول : اعطني ذلك المنزل فيقول الله جل جلاله : فلعلك إن اعطيتكه تسأل غيره قال : لا وعزتك لا أسأل غيره وأي منزل يكون أحسن منه ؟ قال : فيعطاه فينزله ثم يسكت فيقول الله عز و جل : ما لك لا تسأل ؟ فيقول : رب لقد سالتك حتى استحييك وأقسمت لك حتى استحييك فيقول الله تعالى : ألم ترض أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيتها وعشرة أضعافها ؟ فيقول : اتستهزئ بي وأنت رب العزة ؟ فيضحك الرب عز و جل من قوله)[5]

---

[1]) رواي الحديث أبو هريرة
[2] رواه البخاري ج4 ص 474 رقم 1173
[3]) رواه البخاري ج17 ص 497 رقم 5284
[4]) فتح الباري ج3 ص 119
[5]) رواه الطبراني في المعجم الكبير ج9 ص 357 رقم 9784 وصححه الألباني صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 227 وصحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 257 رقم 3704

ففي قول الحق تبارك وتعالى: (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا) [مريم: 73]، يكشف عن الداء الدفين الذي صدَّ أولئك المعرضين عن الاستجابة لنور الوحي، ألا وهو **اختلال موازين التقييم، وانحراف معايير المفاضلة.**

لقد اتخذ المترفون من زخرف الحياة الدنيا وزينتها مقياسًا وحيدًا للحق والباطل، وحكمًا قاطعًا على الرضا الإلهي، **وهذا المقياس المادي زائف في ميزان أهل الغفلة** ، **إذ** غرتهم مظاهر الترف الزائل؛ فنظروا بعين القصور إلى "المقام" و"الندي". وكما أوضح العلامة **الشنقيطي** في أضواء البيان: «**المقام هو محل السكنى الخاص لكل واحد منهم، والندي محل اجتماع بعضهم ببعض**»[1].

فالمقام الحسن في عرفهم هو تلك القصور الشامخة والدور المترفة التي يأوون إليها، يقابلونها بالبيوت المتواضعة والخيام البسيطة التي يقطنها أصحاب النبي ﷺ. أما الندي، فهو مجالس السمر ومنتديات اللهو والغناء التي يضج فيها صخبهم، في مقابل محاريب العبادة وخلوات الذكر التي يأنس فيها المؤمنون بمناجاة ربهم.



وحينما أجرى أولئك المعرضون هذه المقارنة الظاهرية السطحية، توهموا أن سعة العيش وبهرجة المجالس هما آية القرب من الله وعلامة رضاه، فوقعوا في **وهم الاستحقاق وغفلة الاستدراج**

كما ظنوا أن زهد المؤمنين وتجردهم من حطام الدنيا دليل على الهوان والحرمان! وهذا منطق مادي أعوج يتكرر في كل عصر، وقد فضح القرآن زيفه في مواضع شتى، كقوله تعالى: (**أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ**) [المؤمنون: 55-56].

وفي هذا المعنى يضع الإمام **ابن عاشور** قاعدة ذهبية تفرق بين النعمة الحقيقية والاستدراج الخفي، فيقول: «**فمعيار التفرقة بين النعمة الناشئة عن رضى الله تعالى على عبده، وبين النعمة التي هي استدراج لمن كفر به؛ هو النظر إلى حال من هو في نعمة، بين حال هدى وحال ضلال**»[2].

لقد غاب عن أذهان أولئك المفتونين أن العطاء الدنيوي مبذول للبر والفاجر على حد سواء، أما العطاء الحقيقي الذي يختص الله به أولياءه فهو نور الإيمان، وطمأنينة القلب، والحياة الطيبة التي لا تُشترى بالكنوز.

ويجلي هذا المعنى النبوي الشريف قول رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ، وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا لِمَنْ أَحَبَّ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ**»[3]

.

---

[1]) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج3 ص 486
2) التحرير والتنوير ج16 ص 74
3) رواه الحاكم في المستدرك ج2 ص 485 رقم 3671 وصححه الألباني : السلسلة الصحيحة المجلدات ج6 ص 213 رقم 2714

فشتان بين من يملك القصور وقلبه خراب من الإيمان، وبين من يسكن الكوخ وقلبه عامر بأنوار اليقين والرضا؛ مصداقًا لوعد الله الصادق: (**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**) [النحل: 97]. فالحياة الطيبة هي نعيم الروح وراحة البال في الدنيا، يُتَوِّجُها الخلود في جنات النعيم في الآخرة، بينما تبقى قصور المعرضين وأنديتهم أثرًا بعد حين، وحسرة يوم يقفون بين يدي الله.

قوله (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا) (74) يرد عليهم بأدلة هم شاهدون عليها بأعينهم ، فقد عاصروا أمما وقرونا قبلهم كانوا هم أحسن منهم آثاثا ومتاعا لبيوتهم ، ومنظرا بهيا وهيئة لأنفسهم وزينتهم

وكما قرّر أئمةُ التفسير في قوله "الرِّئْيُ" أي كلُّ ما يَروقُ للعينِ منظرهُ ويُعجبها حُسنه من فراهةِ البدنِ وأناقةِ الملبسِ وبهاءِ الهيئة، فقد لخّص العلامةُ الشنقيطيُّ ذلك بقوله "والمرادُ به الذي تراهُ العينُ من هيئتهم الحسنة ومتاعهم الحسن"[1]، كما نقل الإمامُ الطبريُّ عن السلف أن الأثاثَ هو المتاعُ والأموال، والرئيَ هو المنظرُ الحسن[2].






ولذلك فإن من السنة أن يحرص المسلم على حسن مظهره ونظافته؛ اقتداءً بهدي النبي ﷺ الذي أنكر إهمال الهيئة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال :أتانا رسولُ الله ﷺ فرأى رجلًا شَعِثًا قد تفرَّق شعرُه، فقال: (أما كان يجدُ هذا ما يُسكِّن به شعرَه)

وتتأكد هذه العناية بالمظهر لسببين رئيسين:-

الأول :التعبد لله بصفة الجمال وحسن الهيئة، لقول النبي ﷺ (إنَّ الله جميلٌ يحبُّ الجمال)[3]

الثاني :ألا يكون المسلم بهيئته الرثة سببًا في فتنة غير المسلمين وتنفيرهم؛ إذ قد يظن بعضهم أن الالتزام بهذا الدين مدعاةٌ للوضاعة وإهمال النفس، وليس ذلك بصحيح، فالإسلام دينٌ يُعزُّ أهله ويرتقي بهم، وقد قال النبي ﷺ (إنَّ الله يحبُّ أن يُرى أثرُ نعمتِه على عبدِه)[4]، وذلك كله في حدود الاستطاعة، ومن غير سرفٍ ولا تكلّف.

وفي كل الأحوال لابد من العلم أنه مهما تزيّنتِ الدنيا في عيونِ أهلها، فإنّ حقيقتها الزوال، وقيمتها عند الله لا تَعدِلُ شيئًا؛ مصداقًا لقول النبي ﷺ (**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاء**)[5].

قال السيوطي (أخرجه الحاكم (182/4 ، رقم 7301) وقال : صحيح الإسناد . والبيهقى فى شعب الإيمان (395/4 ، رقم 5524) . وأخرجه أيضًا : أحمد (387/1 ، رقم 3672) ، قال الهيثمى (53/1) : رجال إسناده بعضهم مستور ، وأكثرهم ثقات . وقال فى (228/10) : رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف . والعدنى فى الإيمان (ص 127 ، رقم 64) .) جمع الجوامع ج1 ص 8590

1) أضواء البيان ج3 ص 485

2) تفسير الطبري ج18 ص 242

3) رواه مسلم ج ص رقم

4) رواه الترمذي ج 10ص 21رقم2744

5) رواه الترمذي ج 8ص 299رقم 2242 السلسلة الصحيحة للألباني المجلدات ج2 ص 185 ، ج3 ص 17 رقم 943

ثم إنّ سُنّةَ الإهلاكِ الربّانيّ لا تقتصر على تدميرِ القصورِ أو استئصالِ المتاعِ فحسب، بل تتخذ صورًا شتّى تنخرُ في حياةِ الإنسانِ وهو في أوجِ ترفهِ؛ فقد يكون الهلاكُ:

- **في الأبدان** :بأسقامٍ تُعجِزُ الأطباءَ وتُذهبُ لذةَ العيش.
- **في الذريّة** :بعقوقٍ يُحوّلُ الأنسَ إلى وحشةٍ وحسرة.
- **في الأموال** :بمحقِ البركةِ، فتغدو الثرواتُ عبئًا وشقاءً لا نفعَ فيه.
- **في النفوس** :بضنكِ العيشِ، وقلقٍ واكتئابٍ لا تُبدّدهُ أضواءُ القصور، تحقيقًا لقوله تعالى :﴿**فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾] التوبة: 55.[

وختامُ المشهدِ هو الهلاكُ المحتومُ بالموت؛ حيثُ يَرحلُ المرءُ فردًا كما خُلِقَ أولَ مرة، ويُخلّفُ وراءهُ كلَّ ما جمعَ وتحمّلَ به، ليُصبحَ بعدَ العينِ أثرًا، وبعدَ الصيتِ خبرًا. فهل بقيَ من أربابِ تلك الدورِ والقصورِ ساكنٌ، أو ردَّ عنهم متاعُهم من أمرِ الله شيئًا؟! ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الدخان: 25-28)

قوله (قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ...) (75) يصف الله حال المنغمسين في الضلال؛ فقد عجزوا عن إدراك حقيقة الدنيا وتفهم مجرياتها، وانحرفوا عن الصراط المستقيم الذي اهتدى إليه المؤمنون بنور الله، وبما غمر به قلوبهم من محبة الآخرة وتفضيلها على متاع الدنيا الزائل.

مصداق ذلك قول رَسُول اللَّهِ ﷺ (مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ فَآثِرُوا مَا يَبْقَى عَلَى مَا يَفْنَى)[1]

قال المناوي (فهما ككفتي ميزان فإذا رجحت إحدى الكفتين خفت الأخرى)[2]

وقال (وهما كالضرتين إذا أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، فالجمع بين كمال الاستئصال في الدنيا والدين لا يكاد يقع إلا لمن سخره الله لتبديل خلقه في معاشهم ومعادهم وهم الأنبياء أما غيرهم فإذا شغلت قلوبهم بالدنيا انصرفت عن الآخرة وذلك أن حب الدنيا سبب لشغله بها والانهماك فيها وهو سبب للشغل عن الآخرة فتخلو عن الطاعة فيفوتالفوز بدرجاتها وهو عين المضرة)[3].

قوله (..فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا..) أي إنَّ هؤلاء، ولأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، فقد أضرّوا بآخرتهم، وذلك هو الضلال البعيد. ولذلك يمدّهم الرحمن مدًّا في سعيهم لهذه الدنيا، ليفرحوا بها ويتمتعوا بقدر نصيبهم منها استدراجًا لهم؛ إذ لا خلاق لهم في الآخرة.

---

[1]) رواه أحمد ج40 ص 184 رقم 18867 وصححه الألباني وقال صحيح لغيره : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 144 رقم 3247
[2]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 750
[3]) فيض القدير ج6 ص 40

يقول النبي ﷺ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ وَأَمَّا **الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا لِلَّهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا**)[1] .فمن عدله ورحمته أن يجازيهم بحسناتهم في الدنيا ولا ينقصهم من أجورها شيئًا، حتى إذا انقلبوا إلى الآخرة لم يكن لهم فيها نصيب.

قوله (..حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا) (75) تأتي «حَتَّى» هنا لتفيد الغاية؛ أي أن إمهالهم واستمرارهم في ضلالهم يمتد إلى أن يروا ما وُعدوا به، إما بعذابٍ يعاجلهم به الله في الدنيا، أو بقيام الساعة. وكلا الفريقين سواء في استحقاق عقوبة الآخرة طالما أصروا على الكفر بالله.

فمن لم يقدم عملاً صالحاً للآخرة، واستنفد طيباته في حياته الدنيا، فإنه حين يرى مصيره في الآخرة يدرك ساعتها أنه لم يمتلك شيئاً حقيقياً ينتفع به يوم القيامة، وأن كل ما سعى إليه في الدنيا قد عاد بالضرر والشر على آخرته. لقد غرّتهم أموالهم وأهلهم وجنودهم، فاستقووا بها بدلاً من أن يستقووا بالله، حتى إذا جاءت الآخرة انصرف عنهم كل ذلك، فلم يبقَ لهم إلا الضعف وقلة الحيلة.

قوله ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ (مريم: **76**) تأتي هذه الالتفاتةً القرآنيةً بصورة بديعة لتصف مآل المؤمنين الذين كانوا بالأمس عُرضةً لاستهزاء الكافرين وسخريتهم؛ فتُقيم موازنةً عادلة بين الفريقين، وتُجلي حقيقة الفوز والخسران في الدنيا والآخرة.

إذ أن سنة الله في عباده الصادقين أن **يثيبهم على الطاعة بطاعةٍ أخرى**؛ فحين يصطبر المؤمنون على مشاق العبادة، ويجرّدون قلوبهم من شواغل الدنيا الفانية، يكافئهم الله بزيادةٍ في الهداية، وتوفيقٍ لمزيدٍ من القربات، كما قال سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ**﴾ (محمد: 17)

ويُثمر هذا الهدى المتجدد رضا الله عنهم ورضاهم عنه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**﴾ [البينة: 8]؛ فتنشرح صدورهم بذكر الله، وتقنع نفوسهم بما قسمه لهم من رزق، بل ويُطوّعون الدنيا وما فيها لتكون مطيّةً تبلغهم مرضاة ربهم، فتتحول أعمالهم اليومية إلى باقياتٍ صالحات تدوم لهم.

وتُقرر الآية –بمفهوم المخالفة– أن زينة الدنيا إلى زوال، فلا يبقى للإنسان إلا عمله الصالح الذي يقدمه لآخرته، وهو ما أكده القرآن في موضعٍ آخر بقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (الكهف: 46)

وقد تضافرت أقوال السلف والمفسرين في بيان شمول «الباقيات الصالحات»؛ فهي تشمل:-

- **جميع الطاعات والصدقات** :قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الباقيات الصالحات: كل عمل صالح من صلاة، أو صيام، أو صدقة، أو تسبيح، أو ذكر»[2].

---

1) رواه مسلم ج13 ص 413 رقم 5022

2) رواه أحمد ج23 ص 333 رقم 11288 صحّحه الحاكم في «المستدرك»، وحسّنه شعيب الأرناؤوط لغيره في تخريجه لـ«مسند أحمد.«
وضعفه الألباني : وانظر إلى استحسانه في : السلسلة الصحيحة المجلدات ج26 ص 67
وقال وجملة القول؛ أن الحديث صحيح بشواهده، وهو من حيث المعنى أظهر منها ؛ لأنه يتفق مع التفسير الصحيح لقوله تعالى : (والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً) [الكهف: 46]. فقد ذكر ابن جرير في تفسيرها عدة أقوال، اختار منها ما يجمع أعمال الخير كلها

- **أذكار التوحيد والتنزيه** :فقد روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اسْتَكْثِرُوا مِنَ الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ»، قيل: وما هن يا رسول الله؟ قال: «الْمِلَّةُ»، قيل: وما هي يا رسول الله؟ قال: «التَّكْبِيرُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّسْبِيحُ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ» [1].

ويُشير الإمام ابن كثير إلى المعنى التربوي وراء تسميتها بـ«الباقيات»؛ بأن ثوابها يبقى لصاحبها ويدوم أثره في الآخرة، بخلاف زينة الدنيا التي تفنى وتنقضي بانقضاء الأجل.

وحين يدرك المؤمن هذه الحقيقة، فإنه يحرص على استثمار حياته في غرس أعمالٍ لا ينقطع ثوابها بموته، عملاً بتوجيه النبي ﷺ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[2] .كما بشّر النبي ﷺ المرابطين في سبيل الله باستمرار أجر أعمالهم الصالحة بعد وفاتهم، فقال: «مَنْ مَاتَ مُرَابِطًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُجْرِيَ عَلَيْهِ أَجْرُ عَمَلِهِ الصَّالِحِ الَّذِي كَانَ يَعْمَلُ، **وَأُجْرِيَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ**، وَأَمِنَ مِنَ الْفَتَّانِ، وَبَعَثَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِنًا مِنَ الْفَزَعِ»[3] .

وتُختم الآية بقوله ﴿**وَخَيْرٌ مَّرَدًّا**﴾ ببيان عاقبة هذه الأعمال وحسن منقلبها؛ وقد أوضح الإمام الشنقيطي رحمه الله معنى ﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ بقوله: أي: (خيرٌ رَدّاً للثواب والعاقبة الحسنة على فاعلها؛ فليست كأعمال الكفار التي تذهب هباءً ولا تردّ ثواباً على صاحبها) [4]

وقد جسّد النبي ﷺ هذا الميزان الإيماني في تربيةٍ عمليةٍ بديعة لأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؛ فعنها أنهم ذبحوا شاةً وتصدقوا بها، فقال النبي ﷺ : «مَا بَقِيَ مِنْهَا؟»، فقالت: «مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلَّا كَتِفُهَا»، فقال ﷺ مصححاً المفهوم الدنيوي ومُرسّخاً الميزان الأخروي: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»[5]. فما أنفقه العبد في سبيل الله هو الباقي له في ميزانه، وما استبقاه لنفسه في الدنيا هو الذي يزول ويفنى.

---

[1])
[2]) رواه مسلم ج8 ص 405 رقم 3084
[3]) رواه ابن ماجة ج8 ص 268 رقم 2757 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة النبوية ج1 ص 46
[4]) أضواء البيان للشنقيطي ج3 ص 282
[5]) رواه الترمذي ج9 ص 10 ص 2394 وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن الترمذي ج5 ص 470 الصحيحة 2544

المحور السابع
حقيقة الكفر: الاغترار بالنعمة، وازدراء المنعم

إذ لا ينفك الكفر عن أحد صورتين : إما أن يكون قائم على توهم وجود المصلحة عند غير صاحبها ، فيتعلق القلب بغير الله أو أن ينطوي عن تعريف الله بغير صفاته وأسمائه الحسنى ، ووصف أفعاله بما لا يليق ، بل وازدرائه بأن ينسب له النقص .

قال تعالى (أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80) وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87)

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)

ما كفر الكفار إلا طمعًا في المال والولد، وطلبًا للعزة والجاه والسلطان. ولم يتوقف كفرهم عند هذا الحد، بل بلغ بهم الوهم أن ظنوا أن كفرهم سيحقق لهم كل ما يتمنون، وأن الإيمان بالله سيحرمهم من متاع الدنيا. لذلك، بينت الآيات الكريمة أن الكفر يقترن بالجشع في الدنيا، وكثرة الأماني، وطول الأمل، وسوء الظن بالله، والبحث عن العزة عند غيره. وتكون النتيجة الحتمية لهذا الكفر هي ولاية الشيطان وهضم حقوق الناس.

ومن هنا، تسخر الآيات من الكافر وطمعه وسوء ظنه، وتتوعده بالعذاب بسبب هذا الجشع، وبانقلاب الأسباب التي اعتمد عليها لتصبح وبالًا عليه؛ فيتحول إلى عبدٍ للشيطان بدلًا من العبودية الله، ويغدو كالدمية التي يحركها الشيطان بخيوطه، فما أعظم خزيه في الدنيا والآخرة!

وأمام ظلم هؤلاء الكفار لأهل الإيمان، يتمنى النبي ﷺ –بفطرته البشرية– أن يعاجلهم الله بالعقوبة انتصارًا للمستضعفين من المؤمنين. غير أن الله سبحانه يطمئنه ويهدئ من روعه، ويبشره وأصحابه بأنهم في وفده وضيافته ورعايته. ثم تعود الآيات لتخاطب المجرمين متوعدةً إياهم بنار جهنم؛ فقد أعد الله للمتقين كرامةً ونُزُلًا، وللمجرمين جهنم مثوى. وبينما خسر الكافرون نصيبهم من الشفاعة في الآخرة لأنهم أفسدوها بانغماسهم في الدنيا، نالها المؤمنون بعهدٍ من الله جزاء إحسانهم في عبادته وتضحيتهم بدنياهم في سبيله. أما الكافرون فقد حُرموا منها؛ لأنهم افتروا على الله الكذب، واستعزوا بغيره سبحانه، في حين أن الكون كله قد خضع لعزته، فالجميع يدين له بالعبودية، وسيأتونه يوم القيامة فرادى متجردين من كل شيء.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: 77]. وقد ورد في سبب نزولها ما رواه البخاري ومسلم عَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رضي الله عنه قَالَ: «كُنْتُ قَيْنًا –أي حدادًا– فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي دَيْنٌ عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ ﷺ. فَقُلْتُ: لَا أَكْفُرُ حَتَّى يُمِيتَكَ اللَّهُ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: دَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ، فَسَأُوتَى مَالًا وَوَلَدًا فَأَقْضِيكَ». فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ[1].

هذه المناسبة لنزول الآية تبين وهم الأمان الدنيوي وحقيقة المصير الأخروي ، إذ يصور القرآن نموذجًا نفسيًا متكررًا للإنسان الذي يغتر بنعم الله في الدنيا، فيتخذ من سعة رزقه وكثرة ولده دليلًا على رضى الله عنه، بل وجواز مرور نحو نعيم الآخرة، متناسيًا أن العطاء الدنيوي قد يكون استدراجًا وابتلاءً لا تكريمًا.

فهذا النموذج من الكفار لم يكتفِ بجحود آيات الله الواضحة وطمس دلالتها، بل جمع إلى كفره أكل حقوق الضعفاء والمؤمنين بغير وجه حق، ثم قابل تذكيرهم بالبعث بالسخرية والتهكم، متوهمًا أن حاله في الآخرة سيكون امتدادًا لترفه في الدنيا.

إن الدافع الحقيقي وراء هذا الجحود هو التعلق بالدنيا والاغترار بزخرفها؛ إذ يقيس الكافر موازين الآخرة بمقاييس الدنيا، فيظن أن ما يملكه من مال وولد هو دليل استحقاقه لفضل الله، وأن من أنعم عليه في الدنيا لا يمكن أن يحرمه في الآخرة. وقد كشف الإمام **ابن الجوزي** عن حقيقة هذا التلبيس بقوله (وإنما قالوا هذا لموضع شكهم، وقد لبّس إبليس عليهم في ذلك، فقالوا: إن كان بعث فنحن على خير؛ لأن من أنعم علينا في الدنيا بالمال لا يمنعناه في الآخرة)[2].

وهذه القاعدة الفاسدة ليست حكرًا على العاص بن وائل، بل هي سمة للمغترين في كل زمان، كما حكى القرآن عن صاحب الجنتين: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: 35-36]، وكما قال تعالى عن الإنسان الكفور: ﴿وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى﴾ (فصلت: 50).

وقد رد الله تعالى على هذا الظن الفاسد في آيات أخر مبينًا أن المال والولد ليسا مقياسًا للقرب من الله، فقال سبحانه: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: 55-56]، وقال: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ (سبأ: 37). فالعبرة ليست بكثرة العطاء، بل بحسن الاستعمال، وصلاح العمل، وصدق الإيمان.

قوله تعالى ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾(مريم: 78) تضمن ردا يكشف زيف الأمان الذي يتوهمه الكافر لما ادعى لنفسه النعيم في الآخرة جزمًا وتأكيدًا، إذ جاء الرد الإلهي حاسمًا وموبخًا: قال **ابن الجوزي** في بيان معناها (المعنى: أعَلِمَ ما غاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو أم لا؟)[3].

وقد أضاف الإمام **الطبري** في تفسير قوله (أم اتخذ عند الرحمن عهدًا) أي هل قدّم عملًا صالحًا وإيمانًا بالله ورسوله يوجب له وعد الله بالجنة والنجاة؟ [4]فلا هو اطّلع على اللوح المحفوظ ليرى مصيره، ولا هو يملك ميثاقًا من الله بالإيمان والطاعة يؤهله لتلك المنزلة، فعلام التقول على الله بغير حق .

---

[1]) رواه البخاري ج14 ص 366 رقم 4365
2) تلبيس أبليس ج1 ص 72
[3]) كشف المشكل من حديث الصحيحين ج1 ص 1061
[4]) تفسير الطبرى ج18 ص 248

إن شعور الكافر بالأمان في الدنيا استنادًا إلى ماله وجاهه هو أمانٌ متوهَّم وسرابٌ خادع؛ لأن سنن الله اقتضت أن من أمِن مكر الله في الدنيا ولم يخشَ عذابه، انقلب أمانه خوفًا وحسرة يوم القيامة، مصداقًا للحديث القدسي : **(وَعِزَّتِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلَا أَجْمَعُ لَهُ أَمْنَيْنِ؛ إِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)** [1] .

وقد أشار الإمام المناوي إلى أثر الخوف من الله في قلب المؤمن ، بأن (من اشتدّت خشيته في دار الفناء، عَظُم أمانه في دار البقاء، والعكس بالعكس؛ ذلك أن من رُزق عين اليقين في دنياه، أبصر ببصيرته أهوال الصراط وشدائده، فتجرّع من الرهبة وكابد من الفزع ما تقصر العبارة عن وصفه؛ فيكفيه الله تلك الأهوال غدًا، ولا يجمع عليه مرارة الخوف مرتين).

ويقول العارفون: (الخوف ضربان: –

خوف عقابٍ، يعتري أهل الظاهر، وهو خوفٌ عارضٌ يزول بزوال سببه.

وخوف جلال؛ يستولي على أهل القلوب، وهو خوفٌ مقيمٌ لا يزول أبدًا)[2]

قوله (كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا) (79). يأتي قوله :﴿**كَلَّا**﴾ حرفَ ردعٍ وزجرٍ قاطع؛ ليُبطل به دعوى هذا الكافر (العاص بن وائل) ويُكذِّب زعمه الباطل حين قال استهزاءً: ﴿لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾. لقد تجرّأ هذا الشقي فتألّى على الله بغير علم، وظنّ أن الدنيا تُنال بالادعاء أو تُقاس بموازين الباطل. فجاء الوعيد الإلهي الصارم : ﴿**سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ**﴾؛ أي سنُثبت قوله هذا في صحائفه عبر الحفظة الكرام، ليُجازى به يوم الحساب، مصداقاً لقول النبي رسول الله ﷺ (وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ لَا يُلْقِي لَهَا بَالًا يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ)[3] ، وهنا تتجلى **حقيقة عقائدية كبرى**، وهي كمال علم الله وإحاطته، وأن الكلمات ليست هباءً منثوراً، بل هي أعمالٌ تُحصى وتُكتب، فربّ كلمةٍ أطلقها صاحبها استخفافاً كانت سبباً في هلاكه الأبدي.

وقد تضافرت أئمة التفسير من أهل السنة في بيان المراد بقوله تعالى :﴿**وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا**﴾ على معنيين متكاملين:–

- **الزيادة والمضاعفة في الآخرة** :قال ابن عباس ومجاهد وقتادة: أي نزيده عذاباً فوق عذابه في الآخرة؛ جزاءً على كفره، وعقوبةً على استهزائه بآيات الله وادعائه الكاذب.
- **الاستدراج والإملاء في الدنيا** :وذكر الطبري وابن كثير وجهاً آخر بديعاً، وهو أن الله يمده بالمال والولد في الدنيا استدراجاً وإملاءً؛ ليزداد بهما طغياناً وإثماً، فيكون هذا العطاء في ظاهره نعمة، وفي باطنه وقوداً يضاعف عذابه في الآخرة.

إن من سنن الله الكونية في المكذبين أن يجعل ما يتبجحون به من زينة الحياة الدنيا سبباً مباشراً لشقائهم؛ فكلما ازداد هذا الكافر مالاً وولداً، ضاقت عليه الدنيا بما رحبت، وتحرّج صدره بالهموم والفتن، وانشغل بجمعها وحفظها عن الإيمان.

---

[1]) رواه ابن حبان في صحيحه ج2 ص 406 رقم 640 وصححه الألباني : صحيح الترغيب والترهيب ج3 ص 173

[2]) التيسير بشرح الجامع الصغير ج2 ص 371 فيض القدير ج4 ص 649

[3]) رواه البخاري ج20 ص 119 رقم 5997

ويُجلّي هذا المعنى ويفسّره قوله تعالى ﴿**وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾ (التوبة: 85)

فالعطاء هنا ليس إكراماً، بل هو "مدٌّ في العذاب" يتصل فيه شقاء الدنيا بعذاب الآخرة؛ إذ يكدح في الدنيا في تعب جمع المال وتربية الولد، ثم يلقى الله يوم القيامة مفلساً من الشكر، مثقلاً بالتبعات، فيُحاسَب على كل نعمةٍ جحدها، ليُخلَّد في العذاب الأليم.

إذ تُرسّخ هذه الآية في نفس المؤمن **قاعدة تربوية عظيمة** :وهي ألا ينخدع بظواهر العطاء الدنيوي لدى أهل الباطل، ولا يغترّ بكثرة أموالهم وأولادهم؛ فإن العطاء مع المعصية **استدراجٌ لا إكرام**، والمنع مع الطاعة **حمايةٌ لا حرمان** . كما تُربي المسلم على **مراقبة لسانه**، واستشعار **خطورة الكلمة**، وأن يربط كل نعمةٍ ينالها بشكر المنعم سبحانه؛ حتى لا تنقلب النعمة في حقه إلى حُجّةٍ عليه يوم يلقى الله.

قوله (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا)(80) يُعد دستورًا عقديًا وتربويًا يهدم أوهام التعلّق بالدنيا، ويعيد ترتيب أولويات القلب البشري. فهي أيةٌ تُسقط أقنعة الاغترار، وتُعيد للنفس بصيرتها أمام حقيقة الفناء.

إذ جاءت ردًّا على من اغترّ بنعمة الدنيا فظنّها دائمةً له في الآخرة، وهو العاص بن وائل حين قال: «لأوتينّ في الآخرة مالًا وولدًا». فجاء الرد الإلهي حاسمًا؛ قال الإمام **ابن جرير الطبري** :أي (ونسلب هذا القائل ماله وولده، فيصير لنا ماله وولده دونه، ويأتينا هو يوم القيامة فردًا، وحده لا مال معه ولا ولد)[1] .وزاد **ابن الجوزي** بيانًا بقوله :أي: (نرث ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إيّاه) [2].

وقد أشار **ابن كثير** و**السعدي**[3] إلى بُعدٍ عقديٍ دقيق في قوله: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ﴾؛ وهو أن الله لا يرث العبد فحسب، بل يرث "قوله"[4] ، فيتحفظ الله على كل أمواله وأملاكه التي زعم أنها ملكه بدعواه العريضة، فتذهب كلماته أدراج الرياح، وتبقى عليه تبعتها، وتؤول كل النِعم التي تفاخر بها إلى مالكها الحقيقي ووارث الأرض ومن عليها.

فالعبد في هذه الدنيا بين حالين لا ثالث لهما: إمّا أن يَهلِك ماله وولده في حياته، وإمّا أن يَهلِك هو ويتركهما خلفه؛ وفي كلا الفرضين، فإن الله سبحانه هو الوارث الحق، وما في أيدي الخلق إنما هو **عاريةٌ مستردّة**.

وحين يستقرّ هذا اليقين في قلب المؤمن، تتحوّل نظرته إلى الفقد والمصائب؛ فلا يجزع لفوات نعمةٍ يعلم أن الله أولى بها منه، بل يقابل الابتلاء بالرضا والتسليم. وفي هذا المعنى الجليل، يبشّرنا النبي ﷺ بقوله :(إِذَا مَاتَ وَلَدُ الْعَبْدِ قَالَ اللَّهُ لِمَلَائِكَتِهِ قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ **قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ** فَيَقُولُونَ نَعَمْ فَيَقُولُ مَاذَا قَالَ عَبْدِي فَيَقُولُونَ **حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَعَ** فَيَقُولُ اللَّهُ ابْنُوا لِعَبْدِي بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَسَمُّوهُ بَيْتَ الْحَمْدِ)[5]. فمَن أيقن أن الولد والمال ملكٌ لله، لم يزد على أن يقول"**إنا لله وإنا إليه راجعون**"؛ إذ لا يُنازَع المالك في ملكه.

---

[1]) تفسير الطبري ج18 ص 248
[2]) كشف المشكل ج1 ص 1061
[3]) تفسير السعدي ج1 ص 499
[4]) تفسير ابن كثير ج5 ص 261
[5]) رواه الترمذي ج4 ص 154 رقم 942

وفي ختام الآية، يرسم القرآن مشهد النهاية المحتومة :﴿**وَيَأْتِينَا فَرْدًا**﴾؛ قال **قتادة** (فردًا؛ لا مال له ولا ولد ولا عشيرة)، وقال **الحسن البصري**:(خرجتَ من الدنيا كما دخلتَها، لا مال معك ولا ولد). فيوم القيامة، يُبعث الخلق حُفاةً عُراةً غُرلًا، يتجرّد المرء من كل ما شغله عن ربه من جاهٍ أو نسبٍ أو ولد، ولا يبقى له من همٍّ سوى أن ينجو بقلبه، ويفوز برضا ربه.

ولعظم هذا الموقف ورهبته، لم يترك الإسلام العبدَ ليُفاجأ به في الآخرة، بل شرع له تدريبًا يوميًا متكررًا في الدنيا؛ ألا وهو **الصلوات الخمس** .ففي كل صلاة، يقف العبد بين يدي ربه منفردًا بقلبه، منقطعًا عن أهله وماله وشواغل دنياه، وكأنه يقف موقف العرض الأكبر؛ ليتعوّد القلبُ الانعزالَ عن الخلق، والأُنسَ بالخالق، وليتهيأ لتلك اللحظة الحاسمة التي يقف فيها أمام الله فردًا بلا شفيعٍ إلا عمله الصالح.

قوله (وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا)(81) هذه الآية تؤكد خسران وخيبة أمل المشركين في كل ما تعلقت به آمالهم ، الاعتماد القلبي على غير الله لطلب القوة والحماية ينتهي بالخذلان وخيبة الأمل، لأن كل ما سوى الله ضعيف وزائل.

قال ابن القيم (**أعظم الناس خذلانا من تعلق بغير الله** فإن مافاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به وهو معرض للزوال والفوات ومثل المتعلق بغير الله : **كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت** ، وبالجملة : فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها : التعلق بغير الله ولصاحبه الذم والخذلان كما قال تعالى (**لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا**) (الإسراء : 22)[1].

ولتوضيح ما تقدم بأسلوب عملي نضرب أربعة أمثلة من الحياة العملية لتوضيح المعنى :-

المثال الأول : التعلق بالمال والنفوذ كضمان مطلق للأمان: فقد يظن شخص أن ثروته أو منصبه القيادي يحميانه من كل أذى أو أزمة، فيُقدّس عمله وماله لدرجة نسيان حق الله أو التقصير في واجباته الدينية. فإذا وقعت أزمة صحية مفاجئة أو خسارة اقتصادية كبرى، يكتشف أن المال والمنصب عاجزان عن ردّ القضاء أو شراء الطمأنينة، فيشعر بالانكسار والخذلان.

المثال الثاني : الاعتماد الكلي على الأشخاص (الواسطة أو العلاقات) : في بيئة العمل أو الحياة الاجتماعية، قد يربط أحدهم مستقبله ورزقه بشخصية ذات نفوذ، فيتملّقها ويجعلها محور رجائه وخوفه، معتقداً أن رضاها هو سبب رزقه الوحيد. ومع أول تغيّر في المناصب أو مصالح ذلك الشخص، يتخلى عنه، ليجد نفسه وحيداً بلا سند، لأن من تعلّق به كان مخلوقاً ضعيفاً متقلباً.

المثال الثالث : البحث عن القيمة والقبول عبر إرضاء الناس (وسائل التواصل الاجتماعي) : يسعى البعض وراء الشهرة وإعجاب الناس ليشعروا بالعزة والقيمة، فيقدّمون تنازلات في مبادئهم وقيمهم لنيل رضا الجمهور. وبمجرد أن

[1]) مدارج السالكين ج1 ص 458

تتغير أهواء الناس أو يقع في خطأ بسيط، ينقلب الجمهور ضده، فيدرك أن رضا الناس غاية لا تُدرك وأن التعلق به خذلان.

المثال الرابع : التعلق المفرط بالأسباب المادية ونسيان مُسبّب الأسباب : مثل المريض الذي يعلّق شفاءه على طبيب مشهور أو دواء معين، وينسى اللجوء إلى الله بالدعاء والتوكل. فالأخذ بالأسباب واجب، لكن "التعلق القلبي" بها دون الله يجعل الإنسان ينهار نفسياً إذا لم ينجح العلاج، بينما المتوكل على الله يأخذ بالأسباب وقلبه مطمئن بقدرة الله.

من هنا يستبين لنا أن المشكلة ليست في امتلاك المال، أو تكوين العلاقات، أو الأخذ بالأسباب؛ بل في تعلّق القلب بها وجعلها مصدر الأمان الحقيقي بدلاً من الله. فالمؤمن يعمل ويجتهد ويأخذ بالأسباب، لكن قلبه يظل معلقاً بالله وحده، لأنه الباقي الذي لا يزول ولا يُخذل من لجأ إليه.

قوله (كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا) (82) (كلا) حرف زجر وردع ، أي لابد وأن تنقلب عليهم الأسباب التي تعلقت بها قلوبهم ، فلا تنفعهم بل تضرهم ، فمن عبد الجن ازداد رهقا ، ومن عبد الدرهم تعس ، ومن استعان بغير الله ضل وذل ..وهكذا .

وقد تجسّد هذا المعنى في حياة النبي ﷺ ومواقف الصحابة مع قريش، حيث تحوّلت أسباب القوة والزعامة إلى وبالٍ على أصحابها:-

المثال الأول : رؤوس الكفر في غزوة بدر : إذ خرج أبو جهل وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف بجيوشهم وأصنامهم ظنًا منهم أن كثرتهم ومكانتهم وآلهتهم ستمنحهم العز والنصر، فانقلبت كل تلك الأسباب ضدهم، فكان اجتماعهم سببًا في هلاكهم جميعًا في يوم واحد، وبقيت ذكراهم عبرةً وعارًا.

المثال الثاني : الوليد بن المغيرة :آثر زعامته في قريش وأمواله وبنيه على اتباع الحق الذي عرفه، وظن أن ماله وولده سيكونان له سندًا، فأنزل الله فيه آيات تتوعده بأن تتحول تلك النعم التي اغتر بها إلى سبب لزيادة عذابه وفضيحته في الدنيا والآخرة.

المثال الثالث : أبو لهب وزوجته :أنفقا مالهما وجاههما في محاربة الدعوة ظنًا منهما أن ذلك سيحفظ لهما مكانتهما في قريش، فكانت النتيجة أن تحولت أموالهما ومكانتهما إلى وقود لهلاكهما، وخلّد القرآن ذمّهما إلى يوم القيامة.

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 83]، تتجلى حقيقة قرآنية مهيبة تكشف عن سر اندفاع الكافرين نحو الغواية، وتضعنا أمام ميزان دقيق في فهم القدر الإلهي وعلاقة العبد بالشيطان.

إذ جاء التعبير القرآني بلفظ (**تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**) ليصوّر حالة نفسية وحركية عجيبة؛ ويوضح الإمام ابن القيم أصل الكلمة بقوله: «"الأزّ" في اللغة: التحريك والتهييج، ومنه يُقال لغليان القِدر: الأزيز؛ لتحرُّك الماء عند الغليان»[1]. وهنا يبلغ التصوير القرآني ذروة البلاغة؛ فكما أن النار تضرم تحت القدر فيشتد غليان الماء وتضطرب أجزاؤه مندفعاً إلى الأعلى بلا مقاومة، فكذلك الشياطين توقد نار الشهوات والشبهات في قلوب الكافرين، فتستفزهم وتهيجهم نحو المعاصي والكفر، فيُقبلون على الشر إقبال المضطر المندفع، لا يملكون لأنفسهم كبحاً ولا رويّة.

وهذا ما قرره حبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما حين فسّرها بقوله: «تُغويهم إغواءً»، وقال مجاهد وقتادة: «تُزعجهم إزعاجاً إلى المعاصي»، أي تستحثهم وتدفعهم دفعاً عنيفاً لا فتور فيه.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال حول نسبة إرسال الشياطين إلى الله تعالى، وهنا يضع أهل السنة والجماعة الميزان الدقيق بالتفريق بين **الإرادة الكونية القدرية** و**الإرادة الشرعية الدينية** : **فالمقصود بالإرسال التخلية فيحصل التسليط لا إرسال أمر ومحبة**: فالله سبحانه منزه عن أن يأمر بالفحشاء أو يرضى لعباده الكفر، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ [الأعراف: 28]، وقال: ﴿**وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ**﴾ [الزمر: 7]. وإنما المراد بالإرسال هنا: التخلية بينهم وبين الشياطين، ورفع العصمة واللطف عنهم؛ جزاءً وفاقاً لإعراضهم واختيارهم طريق الضلال، كما قال سبحانه: ﴿**فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ**﴾ [الصف: 5]، وقال: ﴿**وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ**﴾ [الزخرف: 36].

ويؤكد هذا المعنى وقوله: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف: 27]. أي أن هذه التخلية عقوبة لأنه لم يؤمنوا ابتداءً ، ولذلك جعل الله قدرة الشيطان في ذلك لا تتدعى الاستفزاز والإغواء ، فهو إذنٌ قدريٌّ للشيطان ، كما جاء في قوله تعالى لإبليس: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ**﴾ [الإسراء: 64].

وقد قرّب الرازي هذا المعنى بمثال بليغ، وهو أن الرجل إذا ربط كلباً عقوراً في داره، ثم دخل عليه معتدٍ فتركه صاحب الدار ولم يمنع الكلب من التوثب عليه؛ صحّ في لغة العرب أن يُقال: «أرسل عليه كلبه»، لا لأنه أمره بالهجوم ابتداءً، بل لأنه خَلّى بينهما ورفع المانع.

فتسليط الشياطين على الكافرين «**أزّاً**» ليس جبراً لهم على المعصية يسلبهم الاختيار، بل هو عقوبة إلهية على كفرهم الأول وإصرارهم على الباطل؛ فحين آثروا ولاية الشيطان على ولاية الرحمن، وكّلهم الله إلى من تولّوه، فساقهم الشيطان سوقاً حثيثاً إلى حتفهم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ**﴾ [النحل: 100].

قوله (فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا) (84) حمل المفسرون لفظ "العدّ" هنا على إحصاء أنفاسهم، وأيامهم، وشهورهم، وسنينهم بدقة متناهية حتى يحين موعد حسابهم؛ فالدنيا مهما طالت فهي قصيرة ومحدودة، (وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ)(يونس/45)

[1]) شفاء العليل ج1 ص 62

والخطاب للنبي محمد ﷺ كي لا يضيق صدره بكفرهم، ولا يغتمّ لرؤية منكرهم، ولا يحزن لظلمهم وإيذائهم لأصحابه المؤمنين. فهي دعوةٌ له ﷺ وللمؤمنين من بعده إلى الصبر وعدم استعجال نزول العذاب بهم؛ لأن الله سبحانه يُمهلهم لحكمةٍ بالغة ولا يُهملهم، وما متاعهم وإمهالهم في الدنيا إلا لحظاتٌ زائلة لا تساوي شيئًا أمام ما ينتظرهم في الآخرة ، فليصبر علي ذلك ، فإمهال الله لهم في الدنيا ليس بشيء ، مما أعده لهم في الآخرة من حسابٍ دقيق وعقابٍ شديد لكل أفعالهم.

قوله (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا) (85) "الحشر" إذا ورد في سياق ذكر المؤمنين ، فإنه يكون هنا كناية عن الزفة والاحتفال والاحتفاء بهم ، فعَنْ عَلِيٍّ ؛ فِي هَذِهِ الآيَةِ : (يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَن وَفْدًا) ، قَالَ : ثُمَّ قَالَ : هَلْ تَدْرُونَ عَلَى أَيِّ شَيْءٍ يُحْشَرُونَ ؟ أَمَا وَاللهِ مَا يُحْشَرُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ ، **وَلَكِنَّهُمْ يُؤْتَوْنَ بِنُوقٍ لَمْ تَرَ الْخَلاَئِقُ مِثْلَهَا** ، عَلَيْهَا رِحَالُ الذَّهَبِ ، وَأَزِمَّتُهَا الزَّبَرْجَدُ ، فَيَجْلِسُونَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ يُنْطَلَقُ بِهِمْ حَتَّى يَقْرَعُوا بَابَ الْجَنَّةِ)[1].

قوله (وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا) (86) أي حشر المجرمين ، وهو تعبير تصوير يوحي بهيئتهم وهم يساقون كما تساق البهائم ، فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى ثَلَاثِ طَرَائِقَ :-

- رَاغِبِينَ
- رَاهِبِينَ

وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ وَثَلَاثَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وَأَرْبَعَةٌ عَلَى بَعِيرٍ وَعَشَرَةٌ عَلَى بَعِيرٍ

- وَيَحْشُرُ بَقِيَّتَهُمْ النَّارُ تَقِيلُ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا ، وَتَبِيتُ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا وَتُصْبِحُ مَعَهُمْ حَيْثُ أَصْبَحُوا وَتُمْسِي مَعَهُمْ حَيْثُ أَمْسَوْا)[2] .

قال ابن حجر (قوله "راغبين" يحتمل أن يكون إشارة إلى "الأبرار"
وقوله "راهبين" إشارة إلى "المخلطين" الذين هم بين الخوف والرجاء
و"الذين تحشرهم النار" هم "الكفار"
أما قوله "واثنان على بعير" ... يحتمل أن يكون المراد بالفوج الأول الأبرار ، وبالفوج الثاني الذين خلطوا فيكونون مشاة والأبرار ركبانا ، وقد يكون بعض الكفار أعيا من بعض فأولئك يسحبون على وجوههم ، ومن دونهم يمشون ويسعون مع من شاء الله من الفساق وقت حشرهم إلى الموقف)[3] .

وقد أوضح السيوطي معنى (يُحْشَر النَّاس عَلَى ثَلَاث طَرَائِق) بأن ذلك (إِشَارَة إِلَى الْأَبْرَار وَالْمُخَلِّطِين وَالْكُفَّار) يُحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف:-

1. **الأبرار**: وهم المشتاقون لما أعدّه الله لهم من الثواب، وهؤلاء يُكرمون ويُركَبون على النجائب (خيار الإبل ومطايا الجنة).

[1]) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ج13 ص 119 ومثله رواه أحمد في مسنده ج2 ص 447 رقم 1333 ج3ص269 رقم 1263
[2]) رواه البخاري ج20 ص 184 رقم 6041
[3]) فتح الباري ج11 ص 382

2. **المُخلِّطون**: وهم المؤمنون الذين خلطوا عملاً صالحاً بآخر سيئاً، وحالهم بين الخوف والرجاء. وقد ورد في الحديث أنهم يُحملون على الإبل.

3. **الفجار والكفار**: وهؤلاء يبعث الله إليهم ملائكة تُسخّر لهم ناراً تحشرهم وتسوقهم إلى المحشر.)[1].

ففي قوله (لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا)(87) تأكيد علي عظمة الله وكمال ملكه، أنه لا يجرؤ أحد من الخلق على الشفاعة عنده إلا بإذنه، ولا يأذن سبحانه إلا لمن ارتضاه من المؤمنين.

قال القحطاني (ومن تمام ملكه وعظمته وكبريائه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فكل الوجهاء والشفعاء عبيد له، لا يقدمون على شفاعة حتى يأذن لهم، ولا يأذن إلا لمن ارتضى) [2]

ويتلخص معنى "العهد" الذي تُنال به الشفاعة وتتحقق به النجاة يوم القيامة في ثلاثة أمور:-

- **التوحيد الخالص** :قال ابن عباس رضي الله عنهما إن العهد هو شهادة أن لا إله إلا الله، والتبرؤ من الحول والقوة، وإفراد الله بالرجاء[3].

ففي الحديث قال رسول الله ﷺ " إنه أتاني من ربي آت **فيخيرني بأن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة** وإني اخترت الشفاعة" فقالوا: يا رسول الله ننشدك بالله والصحبة لما جعلتنا من أهل شفاعتك قال: "فأنتم من **أهل شفاعتي**" قال: فلما ركبوا قال: "فإني أشهد من حضر أن **شفاعتي لمن مات لا يشرك بالله شيئا من أمتي**"[4] وقد اختار النبي ﷺ الشفاعة لأمته على دخول نصفها الجنة.

- **إتمام العبادات** :المقصود بالعهد هو العبادة الصحيحة لله، وأهمها الصلاة؛ فقد قال النبي ﷺ (من جاء **بالصلوات الخمس** قد أكملهن لم ينقص من حقهن شيئًا، **كان له عند الله عهد أن لا يعذبه**، ومن جاء بهن وقد انتقص من حقهن شيئًا، فليس له عند الله عهد، إن شاء رحمه وإن شاء عذبه).[5].
- **التوجه بالدعاء المأثور** : إذ حثّ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على اتخاذ هذا العهد، مبينًا أن الله ينادي يوم القيامة: «**من كان له عندي عهد فليقم**». وعندما سُئل عن صيغة هذا العهد، علّمهم أن يقولوا:-

(اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة، إني أعهد إليك في هذه الحياة الدنيا بأني أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك، **فإنك إن تكلني إلى نفسي تقربني من الشر وتباعدني من الخير، وإني لا أثق إلا برحمتك، فاجعله لي عندك عهدًا توفيه إلى يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد**)[6].

---

[1]) حاشية السيوطي والسندي على سنن النسائي ج3 ص 315 رقم 2058
وقد نبه السيوطي إلى أن الحديث لم يبيّن طبيعة الإبل التي يركبها "المخلّطون"؛ هل هي من إبل الجنة أم من إبل الدنيا التي تُبعث يوم القيامة؟
والأقرب أن تكون من إبل الدنيا وليست من نجائب الجنة؛ لأن حال هؤلاء المخلّطين غير مستقر بعد، فمنهم من سيغفر الله له ويدخله الجنة مباشرة، ومنهم من سيُعذّب في النار بقدر ذنوبه ثم يخرج منها إلى الجنة. ولا يليق بكرم الله أن يُكرم عبداً بركوب مطايا الجنة في المحشر ثم يهينه بعد ذلك بإدخاله النار.
[2]) د سعيد بن علي بن وهف القحطاني : نور التوحيد وظلمات الشرك ج1 ص 19
[3]) تفسير ابن كثير ج5 ص 265
[4]) رواه ابن حبان ج1 ص 443 رقم 211 وصححه الألباني : ظلال الجنة ج2 ص 82 رقم 818
5) رواه ابن حبان في صحيحه ج5 ص 21 رقم 1731 وصححه الألباني : صحيح أبي داود ج5 ص161 رقم 1276
[6]) المسترك على الصحيحين ج2 ص 409 رقم 3436

قوله (وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا) (88) بيانٍ بليغٍ يهزُّ أركان الكون، يقرعُ القرآن الكريم أسماعَ المشركين مستنكراً افتراءهم العظيم. إنّ هذه الفرية الشنعاء لم تكن إلا وليدةَ عقولٍ قاصرة، وتصوّراتٍ سقيمة أظلمت فيها معرفةُ الخالق جلَّ في علاه؛ إذ قاسوا الخالقَ العظيم على المخلوق الضعيف، فظنّوا بربهم ظنَّ السوء، وتوهّموا أنّه سبحانه بحاجةٍ إلى ولدٍ يعضده أو يورث ملكه.

أصل هذه الفرية أن الولد في سنن البشر إنما يُطلب للحاجة، أو لدفع الوحشة، أو لحفظ البقاء والنسل من الفناء؛ والله سبحانه هو» **الصَّمَد** «الغنيُّ بذاته عن كل ما سواه، الحيُّ القيوم الذي لا يعتريه نقصٌ ولا فناء.**فكمال الغنى المطلق لله تعالى** :وقد حسم القرآن هذه القضية بالبرهان العقلي القاطع فقال :﴿**بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾] الأنعام: 101]، فكيف يُنسب الولد لمن تنزّه عن الصاحبة، وهو خالقُ كل شيء ومالكه؟

فلم تنبت هذه الشبهة في عقولهم من فراغ، بل كانت ثمرةً لوساوس الشيطان واستحواذه عليهم؛ فحين أعرضوا عن ذكر الرحمن، قيّض الله لهم شياطين تلازمهم وتدفعهم نحو الكفر دفعاً، مصداقاً لقوله تعالى قبلها بآيات :﴿**أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا**﴾ (مريم: 83) ؛ أي تزعجهم وتستفزّهم نحو المعاصي والشرك إزعاجاً. فكان أعظم ما أوقعهم فيه قرناؤهم من الشياطين أن جرّؤوهم على التقول على الله بغير علم، ونسبة النقص والولد لمن له الكمال المطلق. وهو الأحد الصمد الذي ﴿**لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص: 3-4)[1]

ولذلك يقرّر **شيخ الإسلام ابن تيمية** أن إثبات الولد لله يستلزم تشبيه الخالق بالمخلوق، وإثبات الحاجة والنقص للغني الحميد[2]، وهو عين الشرك والضلال الذي جاءت جميع الرسل لهدمه وإثبات الوحدانية المطلقة لله.

ويقول العلامة السعدي (فرحمته الواسعة اقتضت أن يخلق الخلق ويرزقهم، لا أن يتخذ منهم ولداً، فمن نسب له الولد فقد أساء الظن بربه وجهل كمال رحمته وغناه).

قوله (لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا) (89) (وإلادّ في كلام العرب أعظم الدواهي) [3]، ونظيره قوله (أَفَأَصْفاكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنِ الملائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً)، فقد وصف الله مقولتهم بأنها أمرٌ منكرٌ فظيع، بلغ من شناعته أن كادت السماوات والأرض والجبال أن تتصدع وتنهار غضباً لله وتعظيماً لجلاله، كما بيّنت الآيات التي تليها.

ذلك أن نسبة الولد لله من أعظم الفرى التي لا تليق بجلال الربوبية؛ لأن الولد يقتضي المجانسة والحاجة، والله متعالٍ عن ذلك.

قوله (تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا) (90-91) قال الشنقيطي (إذا كانت الجبال تنهد غيرةً على التوحيد والإيمان، فكيف **بقلب المؤمن** الذي يخاف الله ويرجو رحمته، فإنه أولى وأحرى)[4] .

---

[1]) تفسير ابن كثير ج5 ص 266
[2]) منهاج السنة النبوية ج2 ص 307 ، مجموع الفتاوى ج5 ص 107 ، الاستقامة ج1 ص 180
3) قال ابن عباس : منكراً ، وقال قتادة ومجاهد : عظيماً ، وقال الضحاك : فظيعاً وقال مقاتل : معناه لقد قلتم قولاً عظيماً ، انظر : النيسابوري الثعلبي الكشف والبيان ج6 ص 232

ويُبيّن الحديث القدسي فداحة هذا الادعاء؛ فعَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ قَالَ اللَّهُ **كَذَّبَنِي** ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ **وَشَتَمَنِي** وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي وَلَيْسَ أَوَّلُ الْخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ وَأَمَّا **شَتْمُهُ** إِيَّايَ فَقَوْلُهُ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا وَأَنَا الْأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفْئًا أَحَدٌ)[1] ، وفي رواية (وَأَمَّا **شَتْمُهُ** إِيَّايَ أَنْ يَقُولَ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا) [2].

ورغم غضب الكون بأسره من هذا الافتراء، يتجلّى حِلم الله وصبره على عباده؛ إذ يقول رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**)[3]، أي إنه أشد حِلماً وتجاوزاً عن معاقبتهم كما أوضح ابن الأثير[4]. ولهذا اقترن التحذير في الآية باسمه" **الرحمن**"؛ ليفتح لهم باب التوبة والرجوع مهما عظم ذنبهم.

وقد لخّص ابن القيم هذا المعنى البديع مبيّناً أن السماء تستأذن ربها لترجم العاصي، والأرض لتخسف به، والبحر ليغرقه، والملائكة لتعاجله بالعقوبة، فيقول الرب جل جلاله: (دعوا عبدي فأنا أعلم به إذ أنشأته من الأرض إن كان عبدكم فشأنكم به وإن كان عبدي فمني وإلي عبدى وعزتي وجلالي إن أتاني ليلا قبلته وإن أتاني نهارا قبلته وإن تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا وإن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وإن مشى إلي هرولت إليه وإن استغفرني غفرت له وإن استقالني أقلته وإن تاب إلي تبت عليه من أعظم مني جودا وكرما وأنا الجواد الكريم)[5].

قوله (وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) (92) يعني يستحيل أن يكون له ولد ، إذ إنّ الولد يستلزم الحاجة والمجانسة والحدوث، وهو محالٌ في حقّ الصمد القيّوم الذي تفرد بالمثل الأعلى.

لأن ذلك يدل على الاحتياج ، والله تعالى ليس بحاجة للولد ، فلا يفتقر إلى من يؤنسه ويسانده ، ولا يتطلع إلى من يرثه ، وذلك لأنه (متفرد بالمثل الأعلى ، وذلك يقتضي نزاهة الرب عن النقائص والنظراء)[6]

لاسيما وأن الولد يشغل أبيه به ، حتى أن النبي ﷺ لما انشغل بالحسن والحسين لام نفسه ، ففي الحديث (كان رسول الله ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران بعثران و يقومان فنزل فأخذهما فوضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة رأيت هذين فلم أصبر ثم أخذ في خطبته)[7] ، وفي رواية (رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَعْثُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ كَلَامِي فَحَمَلْتُهُمَا)[8] ، فكيف بالإله سبحانه ينشغل بمثل ذلك

فالولد علامة ضعف أبيه ، وحاشا لله أن ينسب إليه مثل ذلك ، فالاستحالة في هذا الشأن في حق الله تعالى أكبر رد على من زعم أن المسيح ابن الله ، قال تعالى (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) .

---

[4]) التوحيد في الحج ج1 ص 18
[1]) رواه البخاري ج15 ص 365 رقم 4592
[2]) رواه البخاري ج15 ص 367 رقم 4593
3) رواه مسلم ج13 ص 403
4) النهاية في غريب الأثر ج3 ص 9
5) مدارج السالكين ج1 ص 432
6) د / عيسى بن عبد الله السّعدي : حقيقة المثل الأعلى ج1 ص 19 أستاذ مساعد بجامعة أمّ القرى -كليّة التربية بالطائف / قسم الدّراسات الإسلاميّة
7) رواه ابن خزيمة في صحيحه ج3 ص 151 رقم 1801 – والحاكم في المستدرك ج4 ص 210 رقم 7396
8) رواه النسائي ج5 ص 272 رقم 1396 ، وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن النسائي ج4 ص 57 رقم 1413

في قوله تعالى (وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا) (مريم: 92) يُقرّر الحقُّ سبحانه استحالةَ أن يكون له جلّ في علاه ولدٌ؛ إذ إنّ الولادة فرعٌ عن الحاجة والافتقار، والله تعالى هو الغنيّ الحميد، الصمد الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها، ولا يفتقر إلى أحد. فهو سبحانه مُنزّهٌ عن أن يستأنس بولدٍ من وحشة، أو يستعين به على نائبة، أو يترقّب منه وريثاً يخلفه في ملكه؛ لبقائه الدائم وقيّوميّته المطلقة، ولتفرّده بالمثل الأعلى الذي يقتضي كمالَ ذاته وصفاته، ونزاهتَه التامة عن كلّ نقصٍ أو شبيهٍ أو نظير.

يقول الإمام ابن كثير "الصمد": (هو الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها ومسائلها، وهو السيد الذي قد كمل في سؤدده، والشريف الذي قد كمل في شرفه... فلا جوف له، ولا يأكل ولا يشرب، ولا يلد ولا يولد؛ لأنه لا شيء إلا سيموت، ولا شيء إلا سيورث، والله تعالى لا يموت ولا يورث[1]".

يقول الإمام ابن القيم في هداية الحيارى (الله الصمد فصفة الصمدية تعني أنه يستحيل عليه ما يناقض صمديته)[2] فإن الولد بضعة من والده وجزء منه، والرب تعالى أحدٌ صمدٌ لا يتجزأ ولا يتبعض، ولا يقبل الانقسام بوجه، فكيف يكون له ولد؟! والولد فرعٌ عن أبيه متأخرٌ عنه، والله هو الأول الذي ليس قبله شيء، فكيف يكون معه ولدٌ يشاركه في الألوهية؟..!

ومما يزيد هذا المعنى وضوحاً في فِطر العقول: أن الولد في طبيعة البشر مشغلةٌ للوالد ومجلبةٌ للفتنة التي تَصرِف القلب عن كمال التفرغ؛ فهذا سيد الخلق ﷺ ، وهو أكمل البشر عقلاً وقلباً، حين رأى سبطيه الحسن والحسين رضي الله عنهما يمشيان ويتعثران وهو على منبره، رقّ لهما قلبُه فقطع خطبته ونزل ليحملهما، ثم اعتذر مبيناً أثر فطرة الأبوة، فعن بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يخطب فأقبل الحسن والحسين عليهما قميصان أحمران يعثران و يقومان فنزل فأخذهما فوضعهما بين يديه ثم قال : صدق الله ورسوله إنما أموالكم وأولادكم فتنة رأيت هذين فلم أصبر ثم أخذ في خطبته)[3] ، وفي رواية (رَأَيْتُ هَذَيْنِ يَعْثُرَانِ فِي قَمِيصَيْهِمَا فَلَمْ أَصْبِرْ حَتَّى قَطَعْتُ كَلَامِي فَحَمَلْتُهُمَا)[4]. فإذا كان هذا شأن الولد مع أكمل البشر؛ فكيف يُتصوّر في حق الإله العظيم الذي لا يَشغله شأنٌ عن شأن، ولا يعتريه ضعفٌ ولا تأثّر؟!

إنّ اتخاذ الولد أمارةُ نقصٍ وحاجة، وعلامةُ مجانسةٍ وحدوث؛ وحاشا للربّ الجليل أن يُنسب إليه شيءٌ من ذلك. قال تعالى :(أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الأنعام: 101). يقول الإمام ابن جرير الطبري (وما يصلح للرحمن أن يتخذ ولداً، ولا ينبغي له؛ لأن الولد إنما يكون عن اثنين، ولا صاحبة له، ولأن الولد إنما يتخذه مَن يحتاج إليه إما ليعينه، وإما ليرثه، والله تعالى غنيٌّ عن ذلك كله".

فلله صفات الكمال والجلال ولا يجوز أن ينسب إليه النقص ، يقول الله تعالى :(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (النحل: 60) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية "المثل الأعلى هو

---

[1]) تفسير ابن كثير تفسير سورة الإخلاص ج8 ص 529
[2]) هداية الحيارى ص 159
3) رواه ابن خزيمة في صحيحه ج3 ص 151 رقم 1801 – والحاكم في المستدرك ج4 ص 210 رقم 7396
4) رواه النسائي ج5 ص 272 رقم 1396 ، وصححه الألباني : صحيح وضعيف سنن النسائي ج4 ص 57 رقم 1413

الوصف الأعلى، وهو أن يُوصف الله بصفات الكمال التي لا نقص فيها بوجه من الوجوه، ويُنزّه عن كل نقص وعيب ومثل... فكل كمال ثبت للمخلوق فالخالق أولى به، وكل نقص تنزّه عنه المخلوق فالخالق أولى بالتنزيه عنه[1]".

ولهذا كانت استحالة الولد في حق الله تعالى أبلغَ حُجّةٍ وأقوى برهانٍ يُدحض به بهتانُ مَن زعم أن المسيح ابنُ الله، أو أن الملائكة بناتُ الله؛ فإنهم جميعاً عبيدٌ مربوبون، خاضعون لعظمته، متذلّلون لربوبيته، كما حسم القرآن ذلك بقوله(**لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ**) (النساء: 172)

قوله (إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (93) جاءت هذه الآية الكريمة عقيب آيات التنزيه والتعظيم؛ لتقطع دابر الأوهام، وتُثبت أن كل من في الوجود ـــ من الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين كالمسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وسائر الخلائق ـــ مربوبون مقهورون، خاضعون لسلطان الله الواحد القهار، آتون إليه يوم القيامة أذلاء خاضعين تحت وطأة الملك والقهر.

لقد قرر أئمة السلف وأهل السنة أن وصف المخلوق بالعبودية التامة ينفي عنه وصف البنوة بالضرورة العقلية والشرعية؛ إذ الابن من جنس أبيه ومساوٍ له في الحقيقة، فلا يقع عليه ملك الأب ولا رقّه، بينما الخلق كلهم مملوكون لله، مدبَّرون بأمره، نواصيهم بيده.

قال الطحاوي (لو كان لله تعالى ولد لم يكن له عبدًا ، لأن الولد لا يكون عبدا لأبيه ، ولا يقع ملكه عليه ، وإذا كان الولد لا يكون عبدا لأبيه ، انتفى عن الله أن يكون له ولد ، إذ كان كل من في السماوات والأرض له عبد) [2]

ونظير ذلك قوله تعالى (وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون * يسبحون الليل والنهار لا يفترون)[19-20 الأنبياء].

ولا غبار على تسمية الكافر بـ (العبد) في قوله (إلا آتى الرحمن عبدا) فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم[3]، فالعبودية لله تعالى حق على العباد سواء أنكروها أم أقروا بها ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ("العبودية العامة" هي عبودية الربوبية)[4]، وهي شاملة لجميع المخلوقات، فكلهم عبيد الله مربوبون مقهورون مدبَّرون، لا يخرج منهم أحد عن مشيئته وقدرته... ولهذا قال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾.

وفي ذلك أبلغ رد على من زعموا أنهم أبناء الله ، كما في قوله (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (المائدة/18) .

---

[1]) الرسالة التدمرية ج1 ص 22 ، مجموع الفتاوى ج3 ص 30
2) مشكل الآثار ج12 ص 67 رقم 4704
[3]) التفسير القيم لابن القيم ج1 ص 91
[4]) اقتضاء الصراط ج1 ص 461 ، مجموع الفتاوى ج5 ص 105

قوله (لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا) (94) أي (أنفاسهم وأيامهم فلا يخفى عليه شيء)[1]، فلا مهرب منه يوم القيامة ، ولا مفر .

ففي الحديث عَنْ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ (يَا عِبَادِي **إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا** فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدْ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ)[2].

فقوله (أُحْصِيهَا) الإحصاء بمعنى العدّ التفصيلي والحفظ؛ والإحصاء يشمل معرفة التفاصيل وكتابة ذلك، ويشمل أيضا الحفظ وعدم التضييع، فـ(إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ، أُحْصِيهَا) يعني تكتب عليكم بتفاصيلها، وأعرّفكم إياها بتفاصيلها، وأحفظها لكم فلا تضيع)[3].

قوله (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) (95)(هذا رد على أولئك الذين يدعون أنهم إن بعثوا يكون لهم المال والولد والشفيع والنصير ، فأخبر تعالى أنه ما من أحد إلا ويأتيه يوم القيامة فرداً ليس معه شافع ولا ناصر ، ولا مال ولا سلطان)[4] ، فهذه الآية تكرار للمعنى المذكور في قوله (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا) (80) .

وإنما ينجو العبد في ذلك الموقف الفردي، ويأمن تبعة الحساب، متى ما حقق أصل التوحيد بالبراءة التامة من الشرك وأهله، ومجانبة الظالمين وإنكار منكرهم؛ إذ إن الرضا بالباطل أو السكوت عنه مع القدرة يورث صاحبه التبعة. ويقرر أهل السنة والجماعة أن التوحيد لا يستقيم إلا بالجمع بين إثبات العبادة لله وحده والكفر بكل ما يُعبد من دونه، كما قال الإمام ابن القيم (حقيقة التوحيد: كما هي طريقة القرآن أن يقرن النفي بالإثبات فينفي عبادة ما سوى الله ويثبت عبادته)[5] يعني أن تكون البراءة من الشرك وأهله شعار العبد ، فلا يركن إليهم بقلبه، ولا يمالئهم بلسانه، ولا يقرّهم على باطلهم ، مثلما يقر بتوحيد الله بأسمائه وصفاته وأفعاله دون شريك .

وتتجلى هذه الحقيقة بأبلغ صورها في موقف نبي الله ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام؛ فمع علوّ مكانته واصطفائه، فإنه يأتي ربه يوم القيامة فردًا، فيُسأل على رؤوس الأشهاد تبكيتًا لمن غلا فيه وعبده من دون الله، فيتبرأ من شركهم، وتنقلب تلك المعبودات الباطلة خصمًا لعابديها، مصداقًا لقوله تعالى :﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ (مريم: 82).

وفي ذلك المقام العظيم، يصدع نبي الله عيسى عليه السلام بالتوحيد الخالص، منزهًا ربه عما افتراه الضالون، في حوار قرآني يهز الوجدان :﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: 116-117).

---

[1]) الكشف والبيان للنيسابوري ج6 ص 232
[2] رواه مسلم ج12 ص 455 رقم 4674
3) للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ : شرح الأربعون النووية : قسم الحديث ج25 ص 18
[4]) أيسر التفاسير للجزائري ج2 ص 428
[5]) بدائع الفوائد ج1 ص 141

قال الإمام الطبري في بيان هذا الموقف "كلهم آتيه يوم القيامة وحيدا لا ناصر له من الله، ولا دافع عنه[1]" ، ففي هذا أعظم الزجر للخلق عن الغلو في الأنبياء والصالحين؛ إذ كان النبي المعصوم يُسأل ليتبرأ ممن عبده، فكيف بمن دونهم؟.

فإذا كان هذا هو موقف نبيٍّ كريمٍ وعبدٍ صالحٍ لم يأمر إلا بالتوحيد، فحريٌّ بالمؤمن العاقل أن يشتد حذره، وأن يطهر قلبه ولسانه بالبراءة الصادقة من كل عبادة تُصرف لغير الله، ومن كل قولٍ أو عملٍ يضادّ التوحيد؛ كي يلقى ربه يوم القيامة فردًا سليم القلب، نقيّ الصحيفة، مستحقًّا لرحمته ورضوانه، كما صحّ عن النبي أنه قال :(مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ ثُمَّ يَنْظُرُ فَلَا يَرَى شَيْئًا قُدَّامَهُ ثُمَّ يَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ فَمَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِيَ النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ) متفق عليه[2]

[1]) تفسير الطبري ج18 ص 261
[2]) رواه البخاري ج20 ص 205 رقم 6058

خاتمة سورة مريم

بين الذكر واللدد ..... ود وغضب

قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98)

تُختتم سورة مريم بآياتٍ كريمة تضعُ حدًّا فاصلًا بين مصيرين، وتجلو حقيقةَ الصلةِ بين العبد وربّه؛ إذ يُنالُ وُدُّ الرحمنِ بترطيبِ اللسانِ بذكره، وتزكيةِ النفسِ بطاعته، بينما ينصبُّ غضبُ الجبارِ صبًّا على مَن تلدَّد في الخصومة، وتجرَّأ على مقامِ الألوهيةِ بالافتراءِ والشتم.

ومن هذا المنطلق، أشرقت خاتمةُ السورةِ ببشارةٍ ربّانيةٍ عظيمةٍ للذين آمنوا بالله تعالى، وصدَّقوا إيمانَهم بالعمل الصالح؛ بأن يُلقي الله لهم القبولَ والمحبةَ في السماء والأرض، مصداقًا لقول رسول الله ﷺ (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ تَنْزِلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ، فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾[1].

ولم تقتصر الخاتمةُ على هذه البشرى، بل أردفتها بمنةٍ أُخرى؛ ألا وهي تيسيرُ هذا القرآنِ العظيمِ بلسانٍ عربيٍّ مبين، ليكونَ نورًا يهتدي به المؤمنون، ومنهاجًا يستنُّون بسنته، وليكونَ في الوقت ذاته سيفَ نذارةٍ قاطعًا في وجه الألدّاءِ المعاندين الذين جحدوا البعثَ ونسبوا لله الولد؛ وهو ما صوَّره الحديث القدسي الجليل الذي رواه النبي ﷺ عن ربِّ العزة» :قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَشْتِمُنِي ابْنُ آدَمَ، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتِمَنِي، وَيُكَذِّبُنِي، وَمَا يَنْبَغِي لَهُ؛ أَمَّا شَتْمُهُ فَقَوْلُهُ: إِنَّ لِي وَلَدًا، وَأَمَّا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ: لَيْسَ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأَنِي)[2].

لتُختتم السورةُ بإنذارٍ شديد اللهجة، يقرعُ القلوبَ الغافلة، ويُحذّر المكذبين من عاقبةِ التمادي، مُذكّرًا إياهم بسُنّة الله في إهلاكِ الأممِ السابقةِ التي عاجلها العذابُ في الدنيا قبل الآخرة؛ ليكونَ مصيرُهم عبرةً لمن يخشى، وعظةً لمن ألقى السمع وهو شهيد.

وفي قوله (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا) (96) ، تتجلّى بُشرى ربانية تهفو إليها القلوب المؤمنة، وتستشعر معها عظمة الجزاء الإلهي الذي يفيض على صاحبه في الدنيا قبل الآخرة؛ إذ يجمع الله لأهل الإيمان والعمل الصالح بين محبته سبحانه ومحبة عباده ، كما ورد في الحديث (إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ) متفق عليه [3] ، يقول السيوطي ومعنى "يوضع له القبول في الأرض" (الحب في قلوب الناس ورضاهم عنه)[4].

---

[1]) رواه الترمذي ج10 ص 436 رقم 3085 وصححه الألباني ج3 ص 76 رقم 2528
[2]) رواه البخاري ج10 ص 465 رقم 2954
[3]) رواه مسلم ج13 ص 86 رقم 4772
[4]) الديباج علي مسلم ج5 ص 551

ويقول الإمام مجاهد أن المراد به" **محبة في الناس في الدنيا**"، فلا يكاد يراه مؤمن إلا أُلقيت في قلبه ألفته ومودته.

ويؤكد هذا المعنى ذلك الحديث القدسي الذي رواه مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُتَحَابُّونَ فِي جَلَالِي لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغْبِطُهُمْ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ)[1].

كما كشف سعيد بن جبير رحمه الله عن الترتيب الرباني البديع بقوله" :**يحبهم ويُحببهم**"؛ أي يبدأ الله بمحبتهم أولًا، ثم يقذف تلك المحبة في قلوب خلقه المؤمنين، وهو المعنى الذي أكده الضحاك ومجاهد وغيرهما.

ثم تعم المحبة بين المسلمين كما أوجز ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما المعنى في لفظٍ جامع فقال: إن الودّ هو "**الحبّ**"[2]، وزاد في رواية العوفي عنه توضيحًا لآثار هذا الودّ المباركة، فجعله يشمل" :**الودّ من المسلمين في الدنيا، والرزق الحسن، واللسان الصادق**[3]"؛ أي الثناء الحسن والذكر الطيب الذي يخلّد سيرة المؤمن.

وفي روايةٍ أخرى، يربط النبي ﷺ هذا الحديث الشريف بالآية الكريمة ربطًا مباشرًا، فيقول (إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ إِنِّي قَدْ أَحْبَبْتُ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ قَالَ فَيُنَادِي فِي السَّمَاءِ ثُمَّ تَنْزِلُ لَهُ الْمَحَبَّةُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدًّا)[4]

فمحبة الخلق للعبد ليست إلا ثمرةً وأثرًا لمحبة الله له؛ فمتى أصلح العبد ما بينه وبين الله، أصلح الله ما بينه وبين الناس. ويشهد لذلك قول النبي ﷺ (إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لَأُنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلَا شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمْ الْأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ قَالَ هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَاللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ وَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[5]

ويشير ابن القيم إلى أن (المؤمن الصادق يكتسي من نور طاعته وإخلاصه مهابةً وحلاوةً تجذب إليه الأرواح الطيبة دون تكلّف أو تصنّع)[6] ؛ لأن الله تعالى تولّى بنفسه غرس هذا الودّ في القلوب، كما دلّت عليه صيغة الإسناد العظيمة: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾، حيث نسب الجعل إلى اسم" **الرحمن** "إشعارًا بأن هذه المحبة محض رحمةٍ وفضلٍ منه سبحانه.

فهذه الآية تضع لنا قاعدةً تربويةً في زمنٍ يلهث فيه كثيرٌ من الناس خلف رضا الآخرين، ويتزلفون إليهم بالتصنع أو التنازل عن المبادئ طلبًا للشهرة والمكانة ، تلك القاعدة نجد لها ثلاثة ركائز أساسية ، تتمثل فيما يلي :-

---

[1]) رواه الترمذي ج8 ص 403 رقم 2312 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة ج1 ص 108

[2]) تفسير الطبري ج18 ص 262 ، تفسير ابن كثير ج5 ص 269

[3]) تفسير ابن كثير ج5 ص 269

[4]) رواه الترمذي ج10 ص 436 رقم 3085 وصححه الألباني : صحيح كنوز السنة ج1 ص 158

[5]) رواه أبو داود ج9 ص 404 رقم 3060 وصححه الألباني صحيح الترغيب والترهيب ج3ص93 وصحيح وضعيف سنن أبي داود ج8ص 27

[6]) روضة المحبين ج1 ص 221

- **تصحيح البوصلة** : فالقبول الحقيقي لا يُنتزع من أيدي الناس بالمداهنة أو التملق، بل يُستنزل من السماء بصدق الإيمان وصلاح العمل؛ فالله هو مالك القلوب ومصرّفها، وقد قال تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ (طه: 39).
- **الاستغناء بالله عن الخلق** :من طلب رضا الله ولو بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، كما جاء في الحديث النبوي: «مَنِ التَمَسَ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ، وَمَنِ التَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ» رواه الترمذي.
- **أثر الإخلاص في العبادة** :فالآية تربي في نفس المسلم أن العمل الصالح الخفي والإخلاص لله هما أقوى وسائل التأثير في المجتمع؛ إذ يجعل الله لصاحبهما قبولًا يفتح له مغاليق القلوب، فتصبح سيرته دعوةً صامتةً إلى الخير دون أن يبذل جهدًا في الدعاية لنفسه.

فقوله جلّ وعلا ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ (مريم: 97) قد أبان الحكمة البالغة من إنزال هذا الكتاب العزيز بلسانٍ عربيّ مبين، وقد وقف الإمام **ابن كثير** عند سرّ هذا التيسير والاختيار، مبيّنًا أن "**لغة العرب هي أفصح اللغات وأبينها وأوسعها**، وأكثرها تأدية للمعاني التي تقوم بالنفوس؛ فلهذا أنزل أشرف الكتب بأشرف اللغات، على أشرف الرسل"[1]

وليس هذا التيسير اللغوي مجرد قالبٍ بياني، بل هو وجهٌ من وجوه الإعجاز الخالد؛ إذ جمع القرآن بين الذروة في الفصاحة والسهولة في الفهم والتعقل، فلم يكن إعجازه مانعًا للقلوب من الولوج إلى رحابه واستنباط كنوزه. وإذا ما تأملنا سياق السورة الكريمة، ألفيناها حافلةً بآيات الله ومعجزاته لأنبيائه؛ فمعجزة زكريا عليه السلام كانت في خرق نواميس الطبيعة بالإنجاب على الكبر وامرأته عاقر، ومعجزة عيسى عليه السلام في نطقه في المهد صبيًّا، ومعجزة إبراهيم الخليل في إحياء وادٍ غير ذي زرع وإفاضة البركة في ثماره، ومعجزة موسى الكليم في الآيات التسع البينات لفرعون، ومعجزة إسماعيل في تأليف القلوب المتنافرة وتوطينها حول البيت العتيق.

ثم تأتي المعجزة الخاتمة لنبينا محمد ﷺ ، متمثلةً في هذا القرآن الذي يسّره الله على لسانه، وهو النبي الأمي الذي لم يخطّ بيمينه كتابًا ولم يقرأ سطرًا، ليكون هذا التيسير حجةً بالغةً على أهل الفصاحة والبيان. وهنا يبرز **البعد التربوي** العميق في منهج الدعوة والتربية؛ فالله تعالى يربّي الدعاة والمصلحين على أن **وضوح الخطاب ومخاطبة الناس بلسانهم وما تعقله عقولهم هما مفتاح التأثير**، فالتعقيد والغموض ليسا من البلاغة في شيء، وإنما البلاغة في إيصال الحق بأيسر عبارة وأقرب إشارة، مصداقًا لقوله تعالى :﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ (إبراهيم: 4).

وقد خصّ الله عز وجل العرب بهذا الشرف، وفضّلهم بفهم أخباره، وإدراك دقائق ألفاظه، والتمييز بين عامّه وخاصّه، ومحكمه ومتشابهه؛ لأنهم ركيزة الرسالة وحملة لوائها إلى العالمين. فكما أن زكريا عليه السلام بثّ شكواه إلى ربه من ضعف همّة الموالي من بعده وعجزهم عن حمل أمانة الدين، فإن البشرية جمعاء اليوم تتطلع إلى أمة محمد ﷺ لتنهض بهذا اللواء، وتؤدي أمانة البلاغ، قبل أن يشتكيها العالم إلى ربها لتقصيرها في هدايته.

[1]) تفسير ابن كثير ج4 ص 365

وفي إشارةٍ تربويةٍ بالغةٍ لطبيعة النفوس البشرية، يربط الإمام **ابن القيم** بين تيسير القرآن وبين أثره في القلوب، موضحًا أن القرآن" شفاء لما في الصدور"، فالقرآن كتاب جاء مذكرا للفطر ما هو مركوز فيها ، ولذلك قال ابن القيثم (فالفطر مركوز فيها معرفته ومحبته والإخلاص له والإقرار بشرعه ومحبته شرعه الذي هو العدل المحض وإيثاره على ما سواه ، فهي تعرف ذلك وتشعر به مجملا ومفصلا بعض التفصيل فجاءت الرسل تذكرها بذلك وتنبهها عليه وتفصله لها وتبينه وتعرفها الأسباب المعارضة لموجب الفطرة)

وقال ابن القيم (ينتفعُ بالقرآن مَن تلقَّاه بالقبول، واعتقاد الشفاء به، وكمال التلقى له بالإيمان والإذعان، فهذا القرآنُ الذى هو شفاء لما فى الصدور إن لم يُتلقَّ هذا التلقى لم يحصل به شفاءُ الصُّدور مِن أدوائها، بل لا يزيدُ المنافقين إلا رجساً إلى رجسهم، ومرضاً إلى مرضهم)[1] ، يعني أن القرآن كالغيث النافع؛ إذا نزل على أرضٍ طيبةٍ زكيةٍ أنبتت كلأً وعشبًا كثيرًا، وتلك هي قلوب **المتقين** التي تستقبل القرآن بالبشارة والانقياد. أما إذا نزل على أرضٍ سبخةٍ قاسيةٍ لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً، فإنها تزداد عتوًّا ونفورًا، وتلك هي قلوب القوم **اللُّدّ**.

وقوله تعالى :﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾، فـ **"اللُّدّ"** (جمع) **"ألدّ"**، وهو شديد الخصومة، العنيد في المماراة والمجادلة بالباطل، والمقصود بهم هنا كفار قريش الذين ناصبوا النبي ﷺ العداء، واشتدوا في خصومته[2]، تمامًا كما فعل قوم إبراهيم عليه السلام مع نبيهم.

وقد كشف الإمام **ابن عطية** عن الخلفية النفسية والاجتماعية لهذا الوصف، مبيّنًا أن" العرب لجهالتها وعتوها وكفرها كانت تتمدح باللدد، وتراه إدراكًا وشهامة، فمثّل الله لهم بإهلاك من قبلهم ليحتقروا أنفسهم، ويبين صغر شأنهم"[3] لقد انقلبت لديهم الموازين التربوية والأخلاقية، فصار التعنت في الباطل والقدرة على إغلاق أبواب الحجة مفخرةً يتباهون بها في أشعارهم، كما قال الشاعر الجاهلي أبو الغول الطهوي مفتخرًا بصلابة خصومته:

إن تحت الأحجار حزمًا وعزمًا ... وخصيمًا ألدّ ذا مغلاقِ[4]

فجاء القرآن الكريم لينسف هذه القيم الجاهلية الزائفة، ويؤسس لتربيةٍ إيمانيةٍ تجعل الخضوع للحق شرفًا، والتسليم للوحي رفعةً، وتحذر من أن اللدد في الخصومة ليس إلا بوابةً للهلاك وسقوط القدر عند الله وعند الناس.

وفي قوله (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا) (98) إنه يطوي غضب الله صفحاتِ الطغيان، ويُرينا كيف تتلاشى صيحاتُ الكِبرِ في صمتِ الفناء. أولئك الذين ملؤوا الدنيا ضجيجًا، وتفاخروا بعداوتهم لرسول الله ﷺ ، وأنذرهم الله قبل يوم بدرٍ بمآلٍ محتوم، فما لبثوا أن هووا صرعى، وطُوِيَ ذكرُهم، وغدوا أثرًا بعد عين، تمامًا كما حلّ بمن سبقهم من الأمم المكذبة التي ناوأت أنبياءها فبادوا عن بكرة أبيهم، فلم يبقَ لهم رسمٌ يُرى ولا خبرٌ يُروى.

---

[1]) زاد المعاد ج4 ص 36 ، شفاء العليل ج1 ص 301

[2]) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 993 وهو قول لقتادة : انظر تفسير ابن أبي حاتم ، والدر المنثور ج6 ص 492

[3]) تفسير ابن عطية ج4 ص 390

[4]) الكناية :في قوله "تحت الأحجار"، حيث كنى بها عن الصمت والهدوء الذي يسبق العاصفة، فالحجر صامت وثقيل وثابت، وكذلك الشاعر في حال سكونه.
الاستعارة والتشبيه الضمني :في وصفه لنفسه بـ "ذا مغلاق"، فقد شبّه إحكامه لخططه وحصاره لخصمه بالقفل المحكم الذي لا يُفتح، مما يوحي بالسيطرة التامة والكتمان.
السياق والغرض الشعري
يُضرب هذا البيت مثلاً في التحذير من الشخص الهادئ الصامت؛ فليس كل صمت ضعفاً، بل قد يكون خلفه دهاء وقوة واستعداد للانقضاض في الوقت المناسب.

يقول الإمام **ابن جُزَيّ**" :الركز: الصوت الخفي، والمعنى أنهم لم يبق منهم أثر، وفي ذلك تهديد لقريش"[1]

ويُجلّي الإمام **الطبري** هذا المعنى بقوله" :هل ترى منهم من أحد أو تسمع لهم صوتًا خفيًا أو همسًا"، مؤكدًا أن الاستفهام هنا للتقرير والنفي القاطع؛ أي لا عينٌ تُبصرهم ولا أذنٌ تلتقط لهم نأمة.

وتزداد الصورة البيانية عمقًا حين نتأمل الجذر اللغوي للكلمة؛ إذ يُسمى المعدن المدفون في باطن الأرض" **رِكازًا**"، وكأن الآية ترسم كنايةً بديعة عن همودهم وسكونهم تحت الثرى؛ فكما أن المعدن الدفين صامتٌ لا يُسمع له رنينٌ إلا إذا حُرِّك أو استُخرج، فكذلك أولئك الجبابرة خمدت أنفاسهم وانقطعت حركتهم إلى الأبد.

ونظير هذا المشهد القرآني المهيب قوله عز وجل (فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (12) لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (13) قَالُوا يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (14) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ) (الأنبياء 15) ؛ حيث انتقلوا من صخب الترف والعتوّ إلى صمتِ الزرع المحصود والنار الخامدة.

إن الخلود الحقيقي للأثر النافع لا للضجيج . فالقوة المادية والصوت العالي بالباطل زبدٌ يذهب جفاءً مهما علا صاحبه وتجبّر، مصداقًا لقوله تعالى (فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ) (الرعد: 17).

فالعاقل ينبغي أن يُربّي نفسه على أن يبني أثرًا صالحًا يمتد نفعه بعد رحيله، لا أن يغترّ بجاهٍ زائل أو سلطانٍ عابر ينتهي به إلى سكون القبور وانقطاع الذكر، مقتديا بنبي الله زكريا لما قال (وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6) ، وفي هذا المعنى يقول النبي ﷺ (إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ)[2].

فشتّان بين من يُطوى ذكره فلا يُسمع له "ركز"، وبين من يبقى أثره حيًا في موازين الحسنات وقلوب العباد.

---

[1]) تسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ج1 ص 993

[2]) رواه مسلم ج8 ص 405 رقم 3084

الفهرس

تمهـــيد :- 1
..... 2
محاور سورة مريم 6
مقدمة سورة مريم 7
المحور الأول 9
"زكريا" يناجي ربه ويعتكف معتزلا قومه شاكر لرزق الله الولد "يحيى" 9
المحور الثاني 20
مريم تعتزل وتصمت وعيسى يتحدث 20
المحور الثالث 42
اعتزال ابراهيم قومه بعدما أعياه النداء 42
المحور الرابع 54
المنعم عليهم 54
المحور الخامس 61
من الخلف مفرطون ، ومنهم تائبون 61
المحور السادس 69
الإيمان بالبعث ميزان التفاضل بين أهل أندية الشرك وبين أهل العزلة أصحاب المقام الندي 69
المحور السابع 77
حقيقة الكفر: الاغترار بالنعمة، وازدراء المنعم 77
خاتمة سورة مريم 92
بين الذكر واللدد ..... ود وغضب 92